

الفصل الرابع

أدلة توحيد العبادة

مقدمة

المراد بتوحيد الألوهية توحيد العبادة، وهو أفراد الله - عز وجل - بجميع أنواعها الظاهرة والباطنة، فهو توحيد لله - تعالى - بأفعال خلقه، كالصلاة، والدعاء، والذل، والخضوع، والانقياد، والخوف، والرجاء، والذبح، والنذر، وسائر العبادات والقربات بأنواعها الأربعة: القولية والقلبية والبدنية والمالية^(١).

ويدخل في هذا أفراد الله - تعالى - بالطاعة والتحاكم، إذ هي داخله في الذل والخضوع والانقياد لله - تعالى -.

ويطلق بعض العلماء على هذا النوع من التوحيد: التوحيد الإرادي الطلبي، أو التوحيد العملي، ويجعله قسيما للنوعين الآخرين من التوحيد، توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، ويطلق عليهما: التوحيد العلمي، أو الاعتقادي الخبري^(٢).

وهذا التقسيم لأنواع التوحيد مأخوذ من طريق الاستقراء التام لنصوص الكتاب والسنة، فهو يقيني لاشك فيه^(٣).

(١) انظر دعوة التوحيد للدكتور محمد خليل هراس: ٤١ وما بعدها.

(٢) انظر شرح الطحاوية لابن أبي العز: ٤٢/١.

(٣) انظر الرد على من شغب على هذا التقسيم في كتاب صيانة الإنسان للسهبواني:

ص ٤٣٦، وما بعدها، ودعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب للدكتور عبدالعزيز عبداللطيف: ص ٣٢٨، وما بعدها.

والمنهج الشرعي في الدلالة العقلية على استحقاق الله - تعالى -
للإفراد بالعبادة والتأله دون غيره يدور حول محور واحد لا يكاد يتجاوزه،
ألا وهو: دلالة التفرد بالربوبية على استحقاق الأفراد بالعبادة.

وأعني بالربوبية هنا ما يشمل الأفعال والكمال، المعبر عنهما
اصطلاحاً بتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، فهما في هذا
المقام القسيم المقابل لتوحيد العبادة كما تقدم^(١)، وإن كان لكل منهما
دلالة الخاصة على توحيد الألوهية كما سيأتي.
وقد جاءت هذه الدلالة العقلية في مقامين، أحدهما إيجابي،
والآخر سلبي.

وأعني بالإيجابي: إثبات التفرد باستحقاق العبادة، استناداً إلى
التفرد بالربوبية بالمعنى السابق، وبالسلبي: إثبات ذلك من طريق إبطال
الشرك في الألوهية.

وسأعرض فيما يلي الأدلة العقلية الشرعية على توحيد الألوهية
والعبادة من خلال هذين المقامين.

(١) ألمحت فيما سبق عند تعريف توحيد الربوبية؛ إلى أنه يمكن اعتبار توحيد
الربوبية شاملاً لجميع صفات الكمال باعتبارها من لوازم الربوبية.

المبحث الأول دلالة الربوبية على الألوهية

جاء تقرير دلالة الربوبية على الألوهية في القرآن من طريقين :
الأول - دلالة توحيد الربوبية بمعنى الانفراد بالخلق والملك والتدبير
والإنعام وسائر الأفعال المتعدية .
الثاني - دلالة الانفراد بالكمال المطلق، وهو المسمى بتوحيد
الأسماء والصفات . وفيما يلي تفصيل كل من الدالتين، وصورهما في
القرآن والسنة .

المطلب الأول دلالة توحيد الربوبية على توحيد العبادة

سبق بيان أنّ المراد بتوحيد الربوبية: إفراد الله - عز وجل -
بالخلق والملك والتدبير، وأن القرآن قد أقام الأدلة اليقينية القاطعة
على هذا النوع من التوحيد^(١) .
والمقصود هنا بيان الأثر المرتب على هذه الحقيقة في القرآن،
وكيف ربط توحيد الربوبية بتوحيد العبادة، باعتبار أن الأول من أعظم
الأدلة على الثاني، وما كان ليُعاد ويُثبَت بذلك دلائل هذا النوع لمجرد
الإقرار به والوقوف عنده، إذ الإقرار به فطري، والإتيان بأصله حاصل
من عامة بني آدم، إلا ما شدّ منهم، كما مر في الفصل الأول^(٢) . وقد

(١) انظر ص: ٣٠٨ .

(٢) انظر ص: ١٩٤ وما بعدها .

جاء عرض هذه الدلالة العقلية لتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية بصورتين: مجملة ومفصلة.

أما المجملة فكانت بذكر لفظ الربوبية الشامل لسائر معاني الخلق والملك والتدبير والإنعام وغيرها، والاحتجاج بأن من ثبتت له هذه الصفة هو المستحق وحده لأن يُعبد دون غيره، ومن أوضح الأمثلة على هذا مايلي:

١ - قوله - تعالى -: ﴿ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ بَيْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾^(١)، فقد استنكر في الجملة الأولى أن يكون له مطلوب سوى الله - تعالى -، وهذا يتضمن التعبد دون شك، وأقام الدليل القاطع على ذلك في الجملة الثانية التالية، إذ كل ما سوى الله - تعالى - مربوب، فلا يصلح للربوبية، ولا يستحق أن يعبد^(٢).

٢ - قوله - تعالى -: ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾^(٣)، حيث رتب الأمر بالعبادة على وصف الربوبية بالفاء.

وهكذا يمكن اعتبار لفظ (رب) حاملاً لهذه الدلالة على هذا النحو حيث ورد مضافاً إلى العالمين.

٣ - قوله - تعالى -: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَإِنَّمَا يَأْتِي السُّعُودَ إِذَا سَأَلْتَهُمْ لِيُحْمَلَهُمْ فَوَقَفُوا عَلَيْهِمْ حَثِيثًا وَكُلٌّ فِي أَفْقَارٍ مُّطَبَّقِينَ ﴾^(٤).

٤ - قوله - تعالى -: ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِحُكْمِهِ ﴾^(٥).

وأما تفصيل هذه الدلالة فيكون بذكر معاني الربوبية معنى معنى،

(١) سورة الأنعام: ١٦٤.

(٢) انظر تفسير البيضاوي: ٣٣٠/١.

(٣) سورة الأنبياء: ٩٢، وانظر المؤمنون: ٥٢.

(٤) سورة ص: ٦٥ - ٦٦.

(٥) سورة مريم: ٦٥.

وتعليق استحقاق الله - تعالى - للإفراد بالعبادة على انفراده بهذه المعاني والأوصاف دون غيره .

وهذا التفصيل قد يأتي أحياناً في سياق واحد، تُذكر فيه بعض معاني الربوبية، كالخلق والتدبير، ثم تختتم بذكر اقتضائها للتوحيد في العبادة، وقد جاء هذا الأسلوب في الاستدلال على هذا المطلب بكثرة في القرآن، ومن أمثله البيئنة:

١ - قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْ يَبُوءُ ذَلِكَ اللَّهُ رَبَّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١)

٢ - قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى . . . ﴾ الآيات إلى قوله - تعالى - : ﴿ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلِقُ كُلَّ شَيْءٍ وَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (٢)

٣ - قوله - تعالى - : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٣)

٤ - قوله - تعالى - : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . . . ﴾ إلى قوله - تعالى - : ﴿ فَلِلَّهِ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنْتُمْ تُصْرَفُونَ ﴾ (٤) والمعنى هنا: فذلکم الله معبودکم الحق. إذ كانوا مقرين أن الله - تعالى - ربهم الحق، بدليل الآية قبلها.

٥ - قوله - تعالى - : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ

(١) سورة يونس : ٣ .

(٢) سورة الأنعام : ٩٥ - ١٠٢ .

(٣) سورة غافر : ٦١ ، ٦٢ .

(٤) سورة يونس : ٣١ ، ٣٢ .

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ (١) (٢)

قال ابن القيم عن قوله - تعالى -: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾، - ضمن تعليق نفيس له على هاتين الآيتين -: (وفي ضمن هذه الكلمة البرهان القطعي على وجوب عبادته؛ لأنه إذا كان ربنا الذي يربينا بنعمه وإحسانه، وهو مالك ذواتنا ورقابنا وأنفسنا، وكل ذرة من العبد فمملوكة له ملكًا خالصًا حقيقيًا، وقد رباه بإحسانه إليه، وإنعامه عليه، فعبادته له، وشكره إياه واجب عليه، ولهذا قال: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾، ولم يقل إلهكم، والرب هو السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح، والله - تعالى - هو الرب بهذه الاعتبارات كلها، فلا شيء أوجب في العقول والفطر من عبادة من هذا شأنه وحده لاشريك له) (٣).

٦ - قوله - تعالى -: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ . . . الآيات إلى قوله - تعالى -: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤).

ففي هذا السياق الكريم تكرر قوله - تعالى -: ﴿أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ﴾ في ختام الآيات التي تضمنت معاني الربوبية، وهذا استفهام إنكار على المشركين أن يعبدوا غير الله - تعالى -، مع اعترافهم بأنه المنفرد بالخلق والعناية والتدبير. وقد غلط ابن تيمية من جعل

(١) سورة البقرة: ٢١، ٢٢.

(٢) ذكر عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه فسر ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: وحدوا ربكم. انظر جامع البيان للطبري: ١/١٦٠.

(٣) بدائع الفوائد: ٤/١٣٢. وقد علق على تمام الآيتين بما يحسن الاطلاع عليه لأهميته. انظر: ٤/١٣٢ - ١٣٤.

(٤) سورة النمل: ٥٩ - ٦٤.

معنى الاستفهام: أي إله مع الله موجود؛ لأن المشركين ماكانوا يقولون إن شركاءهم الذين يجعلونهم مع الله آلهة يفعلون هذه الأمور، والتقرير في الآية لا يكون إلا لما يقرون به، وهم مقرون بأن شركاءهم لم يفعلوا ذلك، لكن لم يكونوا مقرين بأنه ليس مع الله - تعالى - آلهة أخرى، كما قال - تعالى -: ﴿ أَيُّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ وَإِنِّي بِرُبِّكُمْ شَرِكَوْنَ ﴾ (١) (٢)

٧ - قوله - تعالى -: ﴿ وَاللَّهُكُمُ إِلَهٌُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ (١٣٦) إن في خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْمُلْكِ الَّذِي جَعَرِي فِي الْبَحْرِ مِمَّا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْرَجَ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَنَّا فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١٣٦) الآية (٣).

فقد ذكر ابن جرير عن بعض السلف أنها نزلت تصديقا من الله - تعالى - لنبية ﷺ، واحتجاجا له على مايدعو إليه من توحيد العبادة، وذلك أنه لما نزل قوله - تعالى -: ﴿ وَاللَّهُكُمُ إِلَهٌُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ (١٣٦)، طلب المشركون حجة وبرهانا على هذه الدعوى التي هي أصل الخصومة بينهم وبين النبي ﷺ، فأنزل الله - تعالى - الآية التي بعدها برهانا على ذلك (٤).

(١) سورة الأنعام: ١٩.

(٢) انظر الفتاوى: ٦٨٣/١١، وشرح الطحاوية لابن أبي العز: ٣٧/١ بتحقيق التركي.

(٣) سورة البقرة: ١٦٣، ١٦٤.

(٤) انظر جامع البيان: ٦٥/٢، ٦٦، وقد ذكر في سبب نزولها خلافا حاصله: هل نزلت بطلب من المشركين؟ أم ابتداء من الله - تعالى - احتجاجا لنبية ﷺ؟، وعلى كلا القولين فالمراد حاصل، وهو اشتغالها على الاستدلال بالربوبية على الألوهية، وانظر بيان الدلائل المذكورة في الآية فيما تقدم في الفصل =

وقد نبه ابن جرير إلى أن الله - تعالى - إنما حاجّ بهذه الآية قوما كانوا مقرين بأن الله - تعالى - خالقهم، غير أنهم يشركون في عبادته، ولم يحاجّ بها المعطلة ولا الدهرية الذين ينكرون الصانع أصلاً، وإن كان في أصغر ما عدّ الله - تعالى - في هذه الآية من الحجج البالغة المقنع لجميع الأنام.

وهو بهذا التنبيه يرد على من يعترض على دلالة الآية بأن أصنافاً من الكفار ينكرون أن تكون السموات والأرض وسائر مآذرك في الآية مخلوقاً أصلاً، فلا ينهض عليهم الاحتجاج بما فيها.

٨ - ما حكاه الله - تعالى - من قول إبراهيم لقومه: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَامُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُبَسِّئُنِي ثُمَّ يُجْبِينِ ﴿٨١﴾﴾^(١).

والأمثلة على هذا كثيرة جداً في القرآن^(٢).

كما قد يأتي الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد العبادة مفصلاً بصورة أكبر وأكثر تحديداً، وذلك بذكر معنى واحد من معاني الربوبية، والاستدلال به على توحيد العبادة، وهذا أكثر ما يأتي في القرآن من الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد العبادة، ولاتكاد تخلو سورة منه.

وسأعرض فيما يلي ما وقفت عليه في القرآن من آحاد معاني

= الأول (ص ٢٦٥ وما بعدها)، وانظر أيضاً في ذلك تفسير الرازي: ١٧٨/٤ وما بعدها، فقد توسع في بيان الدلائل التي تضمنتها هذه الآية الكريمة.

(١) سورة الشعراء: ٧٥ - ٨١.

(٢) انظر مثلاً: سورة الأنعام: ١، والأعراف: ٥٤ - ٥٦، وطه: ٤٩ - ٥٤، والسجدة: ٤، والزمر: ٢ - ٦، ونوح: ١٤ - ٢١.

الربوبية التي استخدمت دليلاً على توحيد العبادة، مع ذكر أمثلة متنوعة لكل معنى.

أ- الخلق.

وهو أبرز معاني الربوبية، وهو عند بعض المتكلمين كالأشعري وغيره أخص أوصاف الإله^(١). وهو دال على بقية معاني الربوبية بطريق اللزوم.

ومن الأمثلة القرآنية الظاهرة في الاستدلال به على توحيد العبادة ما يلي:

* ما قصه الله - تعالى - من قول صاحب يس: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾^(٢)، فإنه قصد الأفراد بالعبادة، لا مطلق العبادة، بدليل ذكره للدونية، والشفاعة في قوله بعدها: ﴿أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرَدِّدِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً﴾^(٣)، فالخصومة كانت في أفراد الله - تعالى - بالعبادة، لافي مطلق عبادته ولو مع غيره على سبيل الاستشفاع.

يقول ابن القيم عن هذا الاحتجاج:

(أخرج الحجة عليهم في معرض المخاطبة لنفسه تأليفاً لهم، ونبه على أن عبادة العبد لمن فطره أمر واجب في العقول، مستهجن تركها، قبيح الإخلال بها؛ فإن خلقه لعبده أصل إنعامه عليه، ونعمه كلها بعدُ تابعة لإيجاده وخلقته)^(٤).

* ما ذكره الله - تعالى - من قول نبيه صالح - عليه السلام - لقومه:

(١) انظر أصول الدين للبغدادي، ص ١٢٣، والملل والنحل للشهرستاني:

١٠٠/١، ودرء تعارض العقل والنقل: ٣٧٧/٩.

(٢) سورة يس: ٢٢.

(٣) سورة يس: ٢٣.

(٤) الصواعق المرسله: ٤٩٥/٢، ٤٩٦.

﴿ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ (١) فقد أردف دعواه توحيد العبادة بدليلها القاطع، ألا وهو الانفراد بالخلق.

* مذكروه الله - تعالى - من شأن صاحب الجنتين بقوله: ﴿ قَالَ لَهُمُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴾ (٢) لَنَكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ (٣).

* قوله - تعالى -: ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (٤).

* قوله - تعالى -: ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٥)، والمراد هنا إنكار التسوية والعدل في استحقاق العبادة. فالذي يخلق هو المستحق للعبادة دون من لا يخلق، فهو بمعنى قوله - تعالى -: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (٦)، على أظهر التفسيرين لقوله: ﴿ يَعْدِلُونَ ﴾ (٦).

* مذكروه الله - تعالى - من جواب موسى لفرعون عندما سأله: ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ (٧) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ (٨)، فإن معنى سؤال فرعون: من ربكما الذي تعبدانه؟ أي: من معبودكما، وإلا فهو يعلم أنه لم يخلقهما، وإنما يطمع في عبادتهما له.

(١) سورة هود: ٦١.

(٢) سورة الكهف: ٣٧، ٣٨.

(٣) سورة فصلت: ٣٧.

(٤) سورة النحل: ١٧.

(٥) سورة الأنعام: ١.

(٦) انظر أضواء البيان: ١٧/٢.

(٧) سورة طه: ٤٩، ٥٠، وقد تقدم في الفصل الأول من هذا الباب ذكر الأقوال في تفسير هذه الآية. ص ١٨٠.

* مآذكره الله - تعالى - في كتابه الكريم، من جواب الرسل لأقوامهم لما قالوا لهم: ﴿ وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴾ ﴿٩﴾ قَالَتْ رَسُولُهُمْ أَفَى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿١﴾، والرسل لم يكونوا يدعونهم إلى الإقرار بالصانع ﴿٢﴾، إذ كان هذا مسلماً لدى الجميع، وإنما كانوا يدعونهم إلى توحيد العبادة، ونبذ الأنداد، فمورد شك الكفار هنا هو إفراد الله - تعالى - بالعبادة دون غيره، فيكون قول الرسل: ﴿ أَفَى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ استدلال على توحيد العبادة بالدليل الفطري الداخلي، الذي هو مضمون استفهامهم الاستنكاري: (أفي الله شك)، وبالدليل العقلي الخارجي، الذي هو خلق السموات والأرض.

ولا يعني هذا عدم دلالة الآية على إثبات الصانع بطريق الأولى كما تقدم في الفصل الأول ﴿٣﴾.

* قوله - تعالى -: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿٦﴾ ﴿٤﴾.

* مآذكره الله - تعالى - عن نبيه إلياس - عليه السلام -، حيث قال لقومه: ﴿ أَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ ﴿١٦﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ رَبَّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ ﴿٥﴾.

(١) سورة إبراهيم: ٩، ١٠.

(٢) انظر تفسير الطبري: ١٣/١٩٠، وكلام ابن تيمية المتقدم، ص: ١٦٤، ١٦٥.

(٣) راجع ص: ١٦٩، ١٧٠.

(٤) سورة آل عمران: ٦، وفي هذه الآية كما يقول ابن كثير تصريح ببطلان

الوهية عيسى ابن مريم؛ فإنه خلُق كغيره من سائر البشر، وصور في رحم أمه، والإله لا يتقلب في الأحشاء حالاً بعد حال كما قال ابن جرير: (فإن خلأق ما في الأرحام لا تكون الأرحام مشتملة عليه، وإنما تشتمل على المخلوقين). انظر جامع البيان: ٣/١٦٨، وعمدة التفسير: ٢/٢١٨.

(٥) سورة الصافات: ١٢٥، ١٢٦، ومعنى أحسن الخالقين: أحسن المقدرين. =

وفي هذا السياق - زيادةً على إقامة الدليل على توحيد العبادة -
إبطال احتجاج المشركين باتباع دين الآباء الأولين .

وهكذا فالقرآن مملوء من جنس هذا الاستدلال العقلي القاطع .
يقول الشنقيطي: (ومن كثرة الآيات القرآنية الدالة على إقامة هذا
البرهان القاطع المذكور على توحيدِه - جل وعلا - عُلم من استقراء
القرآن أن العلامة الفارقة بين من يستحق العبادة ومن لا يستحقها هو
كونه خالقاً لغيره، فمن كان خالقاً لغيره فهو المعبود بحق، ومن كان
لا يقدر على خلق شيء، فهو مخلوق محتاج، لا يصح أن يُعبد بحال)^(١) .
ومما جاء في السنة على هذا المنوال:

- ما في الصحيحين عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: سألت
النبي ﷺ: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: (أن تجعل لله نداً وهو خلقك) .
قلت: إن ذلك لعظيم . الخ^(٢) .

والشاهد هنا قوله: (وهو خلقك)، فإنه دليل على استحقاق الله
- تعالى - للإفراد بالعبادة ونبذ الأنداد، وقد قرنه ﷺ بذكر الشرك؛ لبيِّن
بعظمة دلالاته وظهورها عظمة هذا الذنب وظهور قبحه .

- ما رواه الإمام أحمد بسنده عن الحارث بن الحارث الأشعري
يرفعه: «إن الله - عز وجل - أمر يحيى بن زكريا - عليهما السلام - بخمس
كلمات . . . الحديث، وفيه أن يحيى - عليه السلام - قال لبني إسرائيل:

= انظر أضواء البيان للشنقيطي: ٧٨١/٤ .

(١) أضواء البيان: ٣٦٦/٧ .

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله - تعالى -: ﴿فَلَا تَجْمَعُوا لِلَّهِ
أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٤/١٦٢٦)، حديث رقم (٤٢٠٧) . وصحيح
مسلم، كتاب الإيمان: باب كون الشرك أقبح الذنوب، (١/٨٧)، حديث
رقم (٨٦) .

«وإن الله خلقكم ورزقكم، فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً»^(١).

فرتب الأمر بتوحيد العبادة على التفرد بالخلق والرزق.

- مارواه البيهقي بسنده عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ - قال: «يقول الله - عز وجل -: (وإني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويُعبد غيري، وأرزق ويُشكر غيري)»^(٢).

ووجه الشاهد منه ظاهر، وهو التهويل من أمر الشرك في العبادة، مع أن الفطرة والعقل شاهدان بأن من يخلق ويرزق هو وحده صاحب الحق أن يُعبد ويُشكر، ولا يخفى ما في هذا المعنى من تطابق مع ما قبله من الآيات والحديث.

ب - الملك .

وهو من لوازم الخلق بداهة، إذ يمتنع أن يكون مالك الخلق غير خالقهم، الذي أوجدهم من العدم، كما أنه من المعاني الرئيسة الظاهرة للربوبية، لغة وشرعاً كما سبق^(٣).

(١) المسند: ١٣٠/٤، ٢٠٢، وانظر سنن الترمذي، كتاب الأمثال، باب ماجاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة، ١٤٨/٥ برقم: (٢٨٦٣)، وقال عنه: حديث حسن صحيح. وقد حسنه ابن كثير في تفسيره: ٦٢/١، وأورده أحمد شاكر في عمدة التفسير: ١١٧/١، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع: ٣٥٦/١ برقم (١٧٢٤) من الطبعة الثانية، وفي صحيح الترغيب والترهيب: ٢١٩/١ برقم (٥٥٣).

(٢) شعب الإيمان، باب في تعدد نعم الله - عز وجل - وما يجب من شكرها، (١٣٤/٤) حديث رقم (٤٥٦٣). وذكر السيوطي في الدر المنثور: ١٤٢/٦؛ أنه أخرجه الطبراني في مسند الشاسيين والحاكم في التاريخ، وقد ضعفه الشيخ الألباني كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة: ٣٩٣/٥، حديث رقم (٢٣٧١)، والقصد من الحديث دلالة العقلية فلا يضرّ ضعفه إن شاء الله.

(٣) راجع تعريف توحيد الربوبية فيما سبق: ص ٣٠٨.

لذلك جاءت الدعوة إلى توحيد العبادة مقترنة بذكر انفراد الله - تعالى - بالملك المطلق التام، اقتران المدلول بدليله، والدعوى بحجتها، وذلك في نصوص كثيرة من الكتاب والسنة، منها على سبيل المثال:

* قوله - تعالى -: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي هَذِهِ الْبَلَدَةَ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ ﴾ (١).

والشاهد فيها قوله - تعالى -: ﴿ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ ﴾، قال ابن جرير في معناه: (ولرب هذه البلدة الأشياء كلها ملكًا، فإياه أمرت أن أعبد، لامن لا يملك شيئًا) (٢).

* قوله - تعالى -: ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانَّ تُصْرَفُونَ ﴾ (٣)، ووجه الدلالة هنا على توحيد العبادة: أنهم ماكانوا ينكرون أن الله - تعالى - الخلق والملك دون غيره، بدليل أن الله - تعالى - لما أمر نبيه بقوله: ﴿ قُلْ مَنْ يَمْلِكُ مِنْ يَدَيْهِ مَلَائِكَةٌ كَلِّمَتْهُ ﴾ (٤)، كان الجواب: ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ (٥).

فاستدل بما أقرّوا به - وهو الانفراد بالملك - على ما أنكروه، وهو قول «لا إله إلا الله»، فدل دلالة قطعية على أن معناها: لامعبود بحق إلا الله، ثم أنكروا عليهم غاية الإنكار أن يُصرفوا عن الحق مع ظهوره وقيام برهانه.

(١) سورة النمل: ٩١.

(٢) جامع البيان: ٢٤/٢٠، وقد ذكر ابن جرير أن الحكمة من تخصيص مكة بإضافة الربوبية إليها مع أنه رب البلاد كلها ليعرفهم نعمته عليهم وإحسانه إليهم بتحريمها دون سائر البلاد، مما جلب لهم الأمن دون غيرهم. وهذا هو مضمون سورة قريش.

(٣) سورة الزمر: ٦.

(٤) سورة المؤمنون: ٨٨.

(٥) سورة المؤمنون: ٨٩.

* قوله - تعالى - : ﴿ قُلِ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (١)

فهذا استدلال بالملك على الاستئثار بالشفاعة، وهو رد على شبهة المشركين في عبادة غير الله، وأن المقصود بها مجرد الشفاعة عند الله - تعالى - (٢).

فرد عليهم بأن هذه المعبودات كما أنها لا تملك شيئاً من السموات والأرض فكذلك لا تملك شيئاً من أمر الشفاعة، وإنما يملكها الذي يملك السموات والأرض وحده.

* ما رواه الإمام أحمد بسنده عن الحارث بن الحارث الأشعري أن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل أمر يحيى بن زكريا بخمسين كلمات، أن يعمل بهن، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن...» وذكر الحديث وفيه:

«وأولهن: أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً، فإن مثل ذلك مثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله، بورق أو ذهب، فجعل يعمل ويؤدي الذي عليه إلى غير سيده، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك؟، وإن الله خلقكم ورزقكم، فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً» (٣).

ووجه الشاهد في هذا الحديث - سوى ما تقدم عند ذكر دلالة الخلق - أن النبي ﷺ قاس استحقاق الله - تعالى - للعبادة من مملوكيه على استحقاق صاحب العبد المملوك أن تكون خدمته وعمله خالصين لسيده قياساً أولوياً، إذ إن وصف عبودية الخلق لله - تعالى - أعظم ثبوتاً منها فيما بينهم، كما أن صفة الملك لله - تعالى - الخالق الرازق مطلقة

(١) سورة الزمر: ٤٤.

(٢) انظر تفسير البيضاوي: ٣٢٧/٢.

(٣) سبق تخريجه قبل صفحتين.

تامة كاملة، بخلاف ملك المخلوق المحدود الناقص المقيد، فإذا كان واجبا عقلاً وفطرةً أن يخلص العبد عمله لسيد المخلوق المرزوق، فمن باب أولى إخلاص العمل التألّهي للسيد الخالق الرازق.

* وهذا المعنى الذي تقدم في الحديث السابق قد ذكره الله - تعالى - في كتابه حيث قال: ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنزَلْنَا فِيهِ سَوَاءً تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١).

وقد علق شيخ الإسلام ابن تيمية على هذه الآية فقال:

(يقول - تعالى - : إذا كان الواحد منكم ليس له من ممالিকে شريك فيما رزقه الله، بحيث يخاف ذلك المملوك كما يخاف السادة بعضهم بعضاً، فكيف تجعلون لي شريكاً هو مملوكي، وتجعلونه شريكاً فيما يختص بي من العبادة والمخافة والرجاء، حتى تخافوه كما تخافوني؟ ومن المعلوم أن ملك الناس بعضهم بعضاً ملك ناقص، فإن السيد لا يملك من عبده إلا بعض منافعه، لا يملك عينه، وهو شبيه بملك الرجل بعض منافع امرأته، وملك المستأجر بعض منافع أجيره... فإذا كان هذا الملك الناقص لا يكون المملوك فيه شريكاً للمالك، فكيف بالملك الحق التام لكل شيء؟ ملك المالك للأعيان والصفات، والمنافع والأفعال، الذي لا يخرج عن ملكه شيء بوجه من الوجوه، ولا لغيره ملك مفرد، ولا شريك في ملك ولا معاونة له بوجه من الوجوه، كيف يسوغ في مثل هذا أن يجعل مملوكه شريكه بوجه من الوجوه؟) (٢).

(١) سورة الروم: ٢٨.

(٢) درة التعارض: ٣٨٩/٧، ٣٩٠، وانظر إعلام الموقعين لابن القيم: ٣٨٩/٧ وما بعدها.

ج - التدبير^(١)

وهو جنس يدخل تحته أنواع كثيرة، كالإحياء والإماتة، والنفع والضرر، والرزق والمنع، والخفض والرفع، والتحريك والتسكين، والجمع والتفريق، وغير ذلك من أنواع تدبير الله - تعالى - للخلائق، ومما يدخل فيه الإنعام بمختلف صورهِ الظاهرة والباطنة، ومن الاستدلال بصفة التدبير جملة على توحيد العبادة قوله - تعالى -: ﴿... وَمَنْ يُدَبِّرْ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فذِكْرُ اللَّهِ رَبِّكُمْ الْحَقُّ... ﴾^(٢) وقوله - تعالى -: ﴿... أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴿٣﴾﴾

المعنى: هل يستوي الرب القائم بحفظ أرزاق جميع الخلائق، الضامن لها، العالم بهم، وبما يكسبونه من الأعمال، الرقيب عليهم، - وهذه معاني القيومية - هل يستوي من هذا حاله في استحقاق العبادة بهذه الآلهة التي يعبدها المشركون؟ مع كونها لا تتصف بشيء من ذلك إطلاقاً^(٤).

وقد حُذِفَ الجواب في الآية اكتفاء بعلم السامع بما ذُكِرَ عما تُرِكَ ذكره^(٥).

وسأذكر أمثلة مما ورد في الكتاب والسنة من الاستدلال المفصل بهذه المعاني من معاني الربوبية على توحيد العبادة:

(١) مشتق من الدبر: وهو آخر الشيء، وأطلق على تصريف الأمور؛ لأن المدبر ينظر إلى ماتصير إليه عاقبة الأمور، وأواخرها. انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٣٢٤/٢، (مادة دبر).

(٢) سورة يونس: ٣١، ٣٢.

(٣) سورة الرعد: ٣٣.

(٤) انظر تفسير ابن جرير الطبري: ١٥٨/١٣، ١٥٩.

(٥) المرجع السابق: ١٥٩/١٣.

المثال الأول - الإحياء والإماتة، وقد جاء ذكرها عقب كلمة التوحيد في موضعين من القرآن، إيداناً بأن المحي المميت هو المستحق للعبادة وحده دون من لا يملك موتاً ولاحياة ولانشوراً، قال - تعالى -:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ (١).

وذكرها إبراهيم الخليل - عليه السلام - ضمن صفات معبوده الحق بقوله: ﴿وَالَّذِي يُسْتَنى ثُمَّ يُمَحِينَ﴾ (٢).

وقال - تعالى - في محاجة المشركين: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَأَلَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَةَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣)، فالولي الحق هو القادر على إحياء الموتى، دون من لا يقدر على ذلك.

كما جاء الاستدلال بالتوفي - الذي هو قبض الأرواح والإماتة - على توحيد العبادة بما هو أصح من ذلك، كما في قوله - تعالى -:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّكُمْ﴾ (٤) . (٥)

وكما في قوله - تعالى -:

﴿اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٦).

(١) سورة الأعراف: ١٥٨، والدخان: ٨.

(٢) سورة الشعراء: ٨١.

(٣) سورة الشورى: ٩.

(٤) سورة يونس: ١٠٤.

(٥) حُصص التوفي بالذكر هنا دون غيره من صفات الأفعال ومعاني الربوبية والتدبير لما فيه من التخويف الرادع عن العناد، أو لأنه واسطة بين البدء والإعادة، فاكتفى بذكره للدلالة عليه، وقيل غير ذلك، انظر تفسير الرازي:

١٧٢/١٧، وروح المعاني للآلوسي: ١٨٤/٦.

(٦) سورة الزمر: ٤٢.

قال ابن جرير عند تفسيرها: (يقول تعالى ذكره: ومن الدلالة على أن الألوهية لله الواحد القهار خالصة دون كل ماسواه: أنه يميته ويحيي ويفعل ما يشاء، ولا يقدر على ذلك شيء سواه)^(١).

ويدخل هذا النوع من الاستدلال ضمناً في قوله - تعالى -: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢٨)، فإن ترك عبادة الله، أو عبادة غيره من أعظم الكفر دون شك.

المثال الثاني - الإنعام، ويدخل فيه أمور كثيرة جاء الاحتجاج بها في القرآن على توحيد العبادة:

● أشرفها الاجتباء والاصطفاء والتفضيل، كما في قول موسى لقومه: ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٣).

● ومنها الإيمان والإطعام كما في قوله - تعالى -: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ (٤)، وقوله - تعالى -: ﴿ وَقَالُوا إِن نَّبِيعَ الْهُدَىٰ مَعَكَ نَنْخَطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُمْكِن لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ وَرِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٥)،

والهدى الذي دعاهم إليه هو أفراد الله - تعالى - بالعبادة، ومثله قوله - تعالى -: ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُنْخَطِفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفْيَا لِنَطْلِفَ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمَ اللَّهُ بِكَفْرُونٍ ﴾ (٦)، وقد سبقت هذه الآية بذكر شركهم في الدعاء الذي هو مخ العبادة، وذلك في حال الرخاء، وقد كانوا مخلصين

(١) جامع البيان: ٨/٢٤.

(٢) سورة البقرة: ٢٨.

(٣) سورة الأعراف: ١٤٠.

(٤) سورة قريش: ٣، ٤.

(٥) سورة القصص: ٥٧.

(٦) سورة العنكبوت: ٦٧.

في الشدة، كما في قوله - تعالى -: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَجَّحْتَهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (١)، أي في العبادة والدعاء.

وكما في قوله - تعالى -: ﴿ قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنِ الْفَالِطِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُمْ وَلَا يَطْعَمُهُمْ ﴾ (٢)، وهذا استدلال بالخلق والإنعام معاً.

ونحوه قوله - تعالى -: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ مِنْهُ قَدْ كُنْتُمْ كَافِرِينَ ﴾ (٣).

● ومنها تسخير الأنعام وسائر المخلوقات، وسورة النحل مملوءة من هذا النوع من الاستدلال، حتى إنها سميت سورة التَّعْم، لكثرة ما ذكر الله - تعالى - فيها من أنواع التَّعْم على عباده (٤)؛ جاء فيها قوله - تعالى - بعد ذكر جملة من التَّعْم السابغة: ﴿ أَفَنِعْمَةَ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (٥)، وقوله: ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ (٦)، وقوله: ﴿ كَذَلِكَ يُبَدِّلُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٧) وقوله: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يَنْكُرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٨).

والجحود والكفران المستنكر بعد التذكير بهذه التَّعْم إنما كان بعبادة غير الله - تعالى - معه، مع أنها ليس لها شرك مع الله - تعالى - في إيلاء هذه التَّعْم وإسداؤها، أو بنسبة هذا الإنعام إلى غير الله - تعالى -، إما إلى أوثان أو إلى أسباب، كما قال - تعالى -: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ

(١) سورة العنكبوت: ٦٥.

(٢) سورة الأنعام: ١٤.

(٣) سورة فاطر: ٣.

(٤) انظر تفسير ابن كثير: ٦٣٩/٢.

(٥) سورة النحل: ٧١.

(٦) سورة النحل: ٧٢.

(٧) سورة النحل: ٨١.

(٨) سورة النحل: ٨٣.

تَكْذِبُونَ ﴿١﴾ (١)، فقد جاء عن السلف أنهم فسروا التكذيب في هذه الآية بنسبة إنزال المطر إلى الأنواء (٢)، وهذا شرك في الربوبية لافي العبادة؛ لأنه نسبة صفة من صفات الربوبية لغير الله - تعالى - .

المثال الثالث - النفع والضرر (٣)، استدل بهما الخليل - عليه السلام - على التوحيد، كما في قوله: ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَبُهِرْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (٤)، وقال - تعالى - في سياق الاحتجاج للتوحيد: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥)، وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (٦)، وقال: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِي قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٧).

(١) سورة الواقعة: ٨٢.

(٢) انظر تفسير ابن كثير: ٣١٥/٤، والأنواء هي منازل القمر.

(٣) لم يأت في القرآن إسناد الضرّ وحده إلى الله - تعالى - بالمنطوق، وإنما يفهم ذلك مما جاء بمعناه من الآيات، ومن ترتيب بطلان عبادة الشركاء على تجردهم من الانصاف به، كما سيأتي، وفي ذلك سرٌّ بديع، وهو تنزيه الله - تعالى - عن نسبة الشر إليه إلا على سبيل الخلق، والضرّ من جنس الشر، فلا ينسب إلى الله - تعالى - وصفاً، بل خلقاً، كما لا يذكر إلا مقروناً بضده، أو مقيداً على الوجه اللائق بالله - تعالى -، كما في قوله: ﴿إِنَّمَا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مَنْقُومُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]. وهذا معنى قوله ﷺ: «... والشر ليس إليك» أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل: ٤٤٩/١ برقم (٧٧١). انظر الحسنة والسيئة لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٤٨ - ٥٢.

(٤) سورة الشعراء: ٨٠.

(٥) سورة يونس: ١٠٧، ونحوها في الأنعام: ١٧.

(٦) سورة الإسراء: ٦٧.

(٧) سورة الزمر: ٣٨.

والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًا، كما سيأتي في المقام السليبي .
وجاء الاستدلال بتفرد الله - تعالى - بهما على توحيد العبادة في
قول النبي ﷺ لحصين الخزاعي - والد عمران بن حصين - فيما رواه
الإمام الترمذي بسنده عن عمران بن حصين مرفوعًا: «يا حصين، كم
تعبد اليوم إلها؟ قال: سبعة، ستًا في الأرض وواحدًا في السماء .
قال: فأيهم تعدّ لرغبتك ورهبتك؟ قال: الذي في السماء»^(١) .

وفي رواية ابن خزيمة^(٢) أن النبي - ﷺ - قال له: «فإذا أصابك
الضر من تدعو؟ قال: الذي في السماء . قال: فإذا هلك المال من تدعو؟
قال: الذي في السماء . قال: فيستجيب لك وحده وتشرکهم معه؟! . أرضيته
في الشكر، أم تخاف أن يغلب عليك؟ قال: ولا واحدة من هاتين» .

المثال الرابع - الهداية، وقد جاء الاستدلال بها على توحيد
التحاكم في قوله - تعالى -: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ
الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾^(٣) وفي مناظرة موسى لفرعون: ﴿ قَالَ رَبِّنا الَّذِي آتَى كُلَّ
شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾^(٤)، وقال - تعالى -: ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي
خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ ﴾^(٥) وقال: ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا
هَدَانَكُمْ ﴾^(٦)، ولا يكون تكبير الله - تعالى - إلا بإفراده بالعبادة، وقال

(١) السنن، كتاب الدعوات، باب رقم (٧٠)، ٥١٩/٥، ٥٢٠، حديث رقم:
(٣٤٨٣)، وانظر السنن الكبرى للنسائي: ٢٤٧/٦، برقم: (١٠٨٣٢)،
وأورده الألباني في القسم الضعيف من سنن الترمذي .

(٢) ذكرها الحافظ ابن حجر في «الإصابة في تمييز الصحابة» (١/٣٣٦) ولم
اهتد إليها في الموجود من صحيح ابن خزيمة .

(٣) سورة الأنعام: ١١٤ .

(٤) سورة طه: ٥٠ .

(٥) سورة الأعلى: ١ - ٣ .

(٦) سورة البقرة: ١٨٥، والحج: ٣٧ .

إبراهيم لقومه فيما أخبر الله عنه: ﴿أَتَحْتَجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي﴾^(١)، أي في وجوب إفراده بالعبادة. وقال - تعالى -: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا اللَّهُ﴾^(٢)، وقال تعالى - على لسان الرسل - ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْتَنَا سَبِيلًا﴾^(٣)، وقال: ﴿أَلَمْ جَعَلْ لَكُمْ عَيْنِينَ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا أَقْنَمُ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾^(٤).

والآيات في هذا المعنى كثيرة، وسيأتي المزيد - إن شاء الله - عند إبطال الشرك.

-
- (١) سورة الأنعام: ٨٠.
 (٢) سورة الأنعام: ٧١.
 (٣) سورة إبراهيم: ١٢.
 (٤) سورة البلد: ٨ - ١١.

المطلب الثاني

دلالة الانفراد بالكمال على توحيد العبادة.

الاتصاف بالكمال المطلق إنما يدل في هذا الباب على استحقاق صاحبه للعبادة، أما دلالته على توحيد العبادة واستحقاق الله - عز وجل - أن يُفرد بها، فمن حيث إن من لم يبلغ هذا الكمال ولم يتصف به لزمه الاتصاف بضده، مما ينافي التعبد فطرة وعقلاً.

وعلى هذا فكل ما جاء في الكتاب والسنة من صفات الجلال والكمال الثابتة للرب - تبارك وتعالى - فإنها أدلة على استحقاقه لأن يفرد بالعبادة، إذ لم يشاركه أحد في شيء من ذلك الكمال الإلهي.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (والله سبحانه لم يذكر هذه النصوص [يعني آيات الصفات] لمجرد تقرير صفات الكمال، بل ذكرها لبيان أنه المستحق للعبادة دون ماسواه، فأفاد الأصلين اللذين بهما يتم التوحيد، وهما: إثبات صفات الكمال، ردًا على أهل التعطيل، وبيان أنه المستحق للعبادة لا إله إلا هو، ردًا على المشركين، والشرك في العالم أكثر من التعطيل)^(١).

وبهذا الاعتبار، فإن جميع معاني الربوبية السابق ذكرها في دلالة توحيد الربوبية على توحيد العبادة تدخل في هذا النوع من الدلالة.

ومن الأمثلة الظاهرة في القرآن على هذا النوع من الدلالة:

١ - ما جاء في أعظم آية^(٢) في كتاب الله - تعالى -: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ

(١) الفتاوى: ٨٢/٦، ٨٣.

(٢) ثبت ذلك في صحيح مسلم من حديث أبي بن كعب، في صلاة المسافرين، =

إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴿١﴾، والدلالة هنا كامنة في اقتران كلمة التوحيد بهذين الاسمين من الأسماء الحسنى، فإنه يفيد دون شك دلالة الكمال المطلق على توحيد العبادة.

وذلك أن هذين الاسمين متضمنان لسائر صفات الكمال، وعليهما مدار الأسماء الحسنى كلها، فإن الحياة لا تكون أكمل حياة وأتمها إلا بثبوت كل كمال يُضاد نفيه كمال الحياة، وكذلك القيومية تتضمن كمال الغنى والقدرة، فالمتصف بها قائم بنفسه، لا يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه، مقيم لغيره، فلا قيام لغيره إلا بإقامته^(٢).

٢ - ومما يحمل هذه الدلالة قوله - تعالى -: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾﴾^(٣).

فقد رتب الأمر بالدعاء^(٤) في هذه الآية بالفاء، على ما سبقه من الوصف بالحياة وانتفاء الألوهية عن غير الله - تعالى -.

٣ - ومما هو صريح في الاستدلال بتفرد الله - تعالى - بالكمال على تفرده باستحقاق العبادة: سورة الإخلاص؛ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكُنْ لِيَكُودًا ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوًا أَحَدًا ﴿٤﴾﴾. فإن الآية الأولى منها تدل على تفرد الله - تعالى - بالكمال المطلق (فهو أحد لا يماثله شيء من الأشياء بوجه من الوجوه)^(٥).

= باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، (٤٦٥/١)، برقم (٨١٠).

(١) سورة البقرة: ٢٥٥، ونحوها في آل عمران: ١.

(٢) انظر شرح الطحاوية لابن أبي العز: ٩٠/١ - ٩٢.

(٣) سورة غافر: ٦٥.

(٤) الدعاء هنا يشمل النوعين: دعاء المسألة، ودعاء العبادة، انظر الفرق بينهما

في تيسير العزيز الحميد: ص ٢١٥، ٢٢٧.

(٥) تفسير سورة الإخلاص لابن تيمية: ص ٢٩.

والثانية تدل على أن الله - تعالى - هو السيد الذي يُصمد إليه في الحوائج، وهذا هو معنى الصمد على أحد القولين^(١).

فعلى هذا يكون مجيء قوله - تعالى -: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾^(٢) بين ذكر الكمال في أول السورة والتنزيه في آخرها من جنس الاستدلال بالكمال على أن صاحبه هو المستحق لأن يفرد بالعبادة والمسألة دون غيره.

٤ - ومن هذا الضرب من الاستدلال قوله - تعالى -: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾^(٣).

وقد مر ذكر هذه الآية في دلالة الربوبية على توحيد العبادة، أما هنا فالدلالة المقصودة كامنة في مجيء قوله - تعالى -: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾^(٤)؟ بعد الأمر بالعبادة وبالاصطبار عليها، فإن هذه إشارة إلى دلالة التفرد بالكمال على استحقاق التفرد بالعبادة، فكأنه قال: هل تعلم له سميًّا فيستحق أن يعبد معه؟.

٥ - ومن الإشارات القرآنية إلى هذه الدلالة: ذكر الأسماء الحسنى والصفات العلى الدالة على الكمال بعد ذكر كلمة التوحيد، وذلك في كثير من الآيات، كما في قوله - تعالى -: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾^(٥)، وقوله: ﴿وَالنَّهْكَرُ لِلَّهِ وَنَجْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(٦)، وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٦).

(١) تفسير سورة الإخلاص لابن تيمية: ص ١٣.

(٢) معنى سميًّا: شبيها أو مثلاً، انظر جامع البيان: ١٠٦/١٦.

(٣) سورة مريم: ٦٥.

(٤) سورة طه: ٨.

(٥) سورة البقرة: ١٦٣.

(٦) سورة آل عمران: ٦، ١٨.

وقوله: ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١)،
 وقوله: ﴿ إِنَّكُمْ إِلَهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ (٢)،
 وقوله: ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ ﴾ (٣)، وقوله: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا
 إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ (٤).

٦ - وأوضح من ذلك دلالة على التوحيد مجيء تنزيه الله - سبحانه -
 عن الشرك بعد ذكر صفات الكمال، في كثير من الآيات، كقوله - تعالى -:
 ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقَدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّبُ
 الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٥)، وقوله:
 ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ
 مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٦).

٧ - ومن الاستدلال بصفات الكمال الإلهية على وجوب توحيد
 الله بالعبادة ما قصه الله - تعالى - عن هدهد سليمان، من إنكار سجود
 سبأ للشمس من دون الله، قال - تعالى - فيما حكاه عنه: ﴿ وَحِثُّكَ مِنْ
 سَبَأٍ بِنِيٍّ يَقِينٍ ﴾ (١) إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش
 عظيم ﴿ وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ
 فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٢) ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في
 السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلمون ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ
 الْعَظِيمِ ﴾ (٣).

- (١) سورة آل عمران: ٦٢.
 (٢) سورة طه: ٩٨.
 (٣) سورة ص: ٦٥.
 (٤) سورة الحشر: ٢٢.
 (٥) سورة الحشر: ٢٣.
 (٦) سورة الزمر: ٦٧.
 (٧) سورة النمل: ٢٢ - ٢٦.

والشاهد أن الهدهد استدل على توحيد العبادة بأن الله - تعالى - هو وحده الذي يُخرج المخبوء في السموات والأرض، وقد فُسر ذلك بأنه المطر والنبات^(١)، فهذا استدلال بكمال القدرة على أنه لا يستحق العبادة غير الله - تعالى -، ثم أردف ذلك بذكر صفة العلم مستدلاً بها على نفس المطلب.

(١) انظر ترجيح أساليب القرآن لابن الوزير: ص ٤٣، ١٥٩ - ١٦٣.

المبحث الثاني إبطال الشرك في العبادة

تقدمت دلالة القرآن على تفرد الله - تعالى - باستحقاق العبادة، استناداً إلى تفرده بالربوبية والكمال المطلق.

ونعرض هنا لإثبات القرآن لهذا المطلب من خلال صورة أخرى لهذا الاستدلال، ألا وهي إبطال عبادة الآلهة المتخذة من دون الله تعالى، وذلك ببيان أمرين:

الأول - أنها لا تتصف بشيء من معاني الربوبية.

الثاني - أنها متصفة بالنقص المنافي لاستحقاق العبادة.

وسنرى أن هذه الصورة للاستدلال بالربوبية على العبادة هي الأكثر مجيئاً في الكتاب والسنة، وإن كانت في جوهرها لا تختلف عن الصورة السابقة.

المطلب الأول

تجرد الشركاء من الربوبية

تقدم أن أبرز معاني الربوبية: الخلق والملك والتدبير، وفيما يلي عرض لإبطال القرآن عبادة الشركاء، بدلالة تجردهم من هذه المعاني.

أولاً - أن الشركاء لا يخلقون شيئاً بل يُخلقون:

قال - تعالى -: ﴿ وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ (١)

(١) سورة الفرقان: ٣.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ (١). (٢)

وقال - تعالى -: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣).

والمعنى: أيكون هذا مثل هذا في استحقاق العبادة (٤).

وقال - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (٥).

وفي هذه الآية وآية الفرقان السابقة زيادة معنى على بقية الآيات، وهي أن هذه الآلهة المزعومة مع كونها لا تخلق، فهي نفسها مخلوقة، وفي هذا إشارة إلى أن خالقها أحق منها بالعبادة (٦).

وقال - تعالى -: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٧).

قال ابن القيم معلقاً على هذه الآية: (فله ما أحلى هذا اللفظ وأوجزه، وأدله على بطلان الشرك؛ فإنهم إن زعموا أن آلهتهم خلقت شيئاً مع الله طولبوا بأن يروه إياه، وإن اعترفوا بأنها أعجز وأضعف وأقل من ذلك كانت إلهيتها باطلاً ومحالاً) (٨).

وقال - تعالى -: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُهُ الخَالِقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ

(١) سورة الحج: ٧٣.

(٢) انظر تعليق ابن القيم على هذه الآية في إعلام الموقعين: ١/ ٢٣٥، ٢٣٦، والصواعق المرسله له: ٢/ ٤٦٦، ٤٦٧.

(٣) سورة النحل: ١٧.

(٤) انظر جامع البيان لابن جرير الطبري: ١٤/ ٩٢.

(٥) سورة النحل: ٢٠.

(٦) انظر مفاتيح الغيب للرازي: ٢٠/ ١٥.

(٧) سورة لقمان: ١١.

(٨) الصواعق المرسله: ٢/ ٤٦٥.

خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهْرُ ﴿١٦﴾ (١)

وقال - تعالى - : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ (٢)

وقال - تعالى - : ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْ تَوْفِكُونَ ﴾ (٣)

ثانيا - أن الشركاء ليس لهم نصيب من الملك :

قال - تعالى - : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَزَقْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَكُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ (٤)

وهذه الآية كما يقول ابن القيم: أخذت على المشركين بمجامع الطرق التي دخلوا منها إلى الشرك، وسدتها عليهم أحكم سدٍ وأبلغه؛ فإن العابد إنما يتعلق بالمعبود لما يرجو من نفعه، وحينئذ فلا بد أن يكون المعبود مالكا للأسباب التي ينفع بها عابده، أو شريكا لمالكها، أو ظهيرا، أو وجيها ذا حرمة وقدر يشفع عنده، فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة من كل وجه وبطلت انتفت أسباب الشرك وانقطعت مواده (٥).

وقال - تعالى - : ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ أَنْتُمْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٦) ﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَمْ يُلْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٦)

(١) سورة الرعد: ١٦.

(٢) سورة فاطر: ٤٠، ونحوها في سورة الأحقاف: ٤.

(٣) سورة يونس: ٣٤.

(٤) سورة سبأ: ٢٢.

(٥) باختصار من الصواعق المرسله: ٤٦١/٢، ٤٦٢.

(٦) سورة الزمر: ٤٣، ٤٤.

وقال - تعالى - : ﴿ ذَالِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ (١) ﴿ (٢) .

ثالثا - أن الشركاء ليس لهم شيء من التدبير .

احتج بعض السلف بقوله - تعالى - : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُخَوِّضُ مَنْ تَشَاءُ مِنْ قَبْلِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٦) ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٧) ﴿ (٣) ، على بطلان دعوى النصارى إلهية عيسى - عليه السلام - ؛ حيث كانوا يحتجون عليها بأنه يحي الموتى، ويبرئ الأسقام، ويخلق الطير من الطين، ويحدث بالغيوب، وغير ذلك مما جعله الله - تعالى - آية لنبوته، فإن من سلطان الله - تعالى - وقدرته ما لم يعطه عيسى، وذلك مثل تمليك الملوك، واصطفاء الأنبياء، وإيلاج الليل في النهار، والنهار في الليل، وإخراج الحي من الميت، والميت من الحي، ورزق من شاء الله - تعالى - بغير حساب، فكل ذلك لم يُسلط عيسى عليه، ولم يُملكه، ولو كان إلهها لكان ذلك كله إليه، ومعلوم لدى النصارى أن عيسى - عليه السلام - كان يهرب من الملوك من بلد إلى بلد (٤) .
ومن أنواع التدبير التي أبطل الله عبادة الشركاء بالتجرد منها :

(١) القطمير: الغشاء الذي على نواة التمرة. انظر معاني القرآن للنحاس: ٤٤٨/٥ .

(٢) سورة فاطر: ١٣ .

(٣) سورة آل عمران: ٢٦، ٢٧ .

(٤) انظر جامع البيان لابن جرير الطبري: ٢٢٧/٣، وقد أسند ابن جرير هذا المعنى عن محمد بن جعفر بن الزبير بن العوام، وهو من فقهاء السلف وقرائهم، توفي ما بين عامي ١١٠ و١٢٠هـ، انظر تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني: ٨١/٩، ٨٢ .

١ - عدم النفع والضرر:

وقد امتلأ القرآن بترديد هذا الدليل على بطلان عبادة غير الله

- تعالى -، ومن أمثلة ذلك:

* قوله - تعالى -: ﴿ قُلْ أَفَاتُخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ (١)،
وإذا كانت لا تملك ذلك لأنفسها فكيف تملكه لعباديتها؟! .

* ما ذكره الله - تعالى - من قول مؤمن يس: ﴿ أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدِ الرَّحْمَنُ يَضِرَّ لَاتُغْنِي عَنْكَ شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونَ ﴾ (٢) إِنْ إِذَا لَنِي ضَلَّلْتُ
مُبِينٌ ﴿ (٢) .

فهو استدل على بطلان عبادة هذه الآلهة بكونها لا تنفعه وقت حاجته إليها، إذ لا تملك من القدرة ما تنقذه به من الضر لو أصابه الله - تعالى - به -، كما أنها لا تملك من الجاه والمكانة عند الله - تعالى - ما يشفع له في دفع ذلك الضر، فبأي وجه تستحق تلك الآلهة العبادة (٣) .

* ما قصه الله - تعالى - من استنكار إبراهيم على قومه في قوله: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ (٤) أَمْ لَكُمْ أَلْمَامٌ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿ (٤)، أي: أفلا تعقلون أن الذي يستحق العبادة إنما هو مالك النفع والضرر، دون من لا يملك ذلك .

* ما ذكره الله - تعالى - في معرض إبطال ألوهية المسيح وأمه حيث قال - تعالى -: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ (٥) .

(١) سورة الرعد: ١٦ .

(٢) سورة يس: ٢٣، ٢٤ .

(٣) انظر الصواعق المرسلة لابن القيم: ٤٩٧/٢ .

(٤) سورة الأنبياء: ٦٦، ٦٧ .

(٥) سورة المائدة: ٧٦ .

والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًا^(١).

فهذه الآيات وأمثالها تدل على أن هذه الآلهة لاتنفع أحدًا ولا تضره أبدًا، سواء عبدها أم لم يعبدها، وأن ذلك دليل على بطلان عبادتها. ولا يتعارض هذا مع قوله - تعالى -: ﴿يَدْعُوا لِمَنْ صَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾^(٢)، فإن هذه الآية إنما أثبتت النفع والضّر للمدعو على هيئة اسم مضاف إليه، والشيء يضاف إلى الشيء لأدنى ملابسة، كما في قوله - تعالى -: ﴿بَلْ مَكْرُ أَيْلٍ وَالنَّهَارِ﴾^(٣)، في حين نفت الآية التي قبلها قدرة غير الله - تعالى - على الضر والنفع، حيث كان المنفي فيها هو فعلهم الضر والنفع، قال - تعالى -: ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ﴾^(٤)، وفي هذه الآية قال: ﴿يَدْعُوا لِمَنْ صَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ ولم يقل: يضر أعظم مما ينفع، ولأريب أن بين المعبود من دون الله وبين ضرر عابديه تعلقًا يقتضي الإضافة، كأنه قيل: لمن شره أقرب من خيره، وخسارته أقرب من ربحه، ولو جعل فاعل الضر فإنما هو بهذا الاعتبار، وهو أنه سبب فيه، لا أنه هو الذي فعله، وبهذا البيان يظهر مزيد إبطال للإلهية هذه المعبودات، من حيث إنها ليست فقط لاتنفع ولا تضر مطلقًا، بل ضررها الحاصل لعابديها أيضًا ليس صادرًا منها^(٥).

٢ - عدم الهداية للحق، أو الاهتداء إليه:

كما في قوله - تعالى -: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ

(١) انظر مثلاً: الأنعام: ٧١، يونس: ١٨، ١٠٦، ١٠٧، الإسراء: ٥٧، مريم:

٤٢، الفرقان: ٣، ٥٥، الزمر: ٣٨، طه: ٨٩، الشعراء: ٧٣، الحج:

١٢، ١٣.

(٢) سورة الحج: ١٣.

(٣) سورة سبأ: ٣٣.

(٤) سورة الحج: ١٢.

(٥) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٢٧١/١٥ - ٢٧٤.

يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي^(١) إِلَّا أَنْ يَهْدِيَهُمُ الْكَوْ
كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٢﴾

وكما في قوله - تعالى - منكرًا على قوم موسى اتخاذهم العجل
إلها: ﴿الْقَبِيرُوا أَنْتُمْ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾^(٣).

ووجه الدلالة هنا على بطلان الشركاء ظاهر، فإن الهداية بجميع
أنواعها من أعظم الضرورات والمطالب، ولا بد للمعبود إن كان إلها
حقًا أن يملكها لعابديه، وحيث انتفت الهداية عن غير الله - تعالى - دل
ذلك على بطلان عبادة غيره.

٣ - عدم امتلاك الرزق:

كما في قوله - تعالى -: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾^(٤).

وكما في قول الخليل - عليه السلام -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ^(٥)
وَمَا لَهُمْ رِزْقًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِذْ هُمْ يُشْكُرُونَ﴾^(٦).

(١) يَهْدِي: أي يَهْتَدِي، وعبر عن الشركاء بما يدل على أنها قابلة للاهتداء وبين
التي للعاقل مع كونهم ليسوا كذلك؛ لأنهم نزلوها منزلة من يعقل، أو لوجود
الهداية في بعض الشركاء، كعيسى والملائكة وعزير. انظر زاد المسير: ٣١/٤،
وحاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: ٢٧/٥، وقد فسر القراء الاهتداء
في آخر الآية بأنه الانتقال من مكان إلى مكان، انظر معاني القرآن: ١/٤٦٤،
ولا يخفى بعده، وعدم توافقه مع قوله - تعالى -: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾.

(٢) سورة يونس: ٣٥.

(٣) سورة الأعراف: ١٤٨.

(٤) سورة النحل: ٧٣.

(٥) سورة العنكبوت: ١٧.

(٦) سورة الملك: ٢١.

أي مَنْ مِنْ شركائكم الذين تعبدون من دون الله - تعالى - يستطيع أن يرزقكم إن أمسك الله - تعالى - رزقه عنكم^(١)؟ فإن كنتم تعلمون أنه لا رازق إلا الله فالتزموا ألا تعبدوا غيره.

وكما قال - عز وجل - : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢).

٤ - عدم النصرة:

وقد نبه الله - تعالى - إلى هذه الدلالة في مواضع عدة، كما في قوله - عز وجل - : ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكُفْرَونَ إِلَّا فِي عُرْوٍ ﴿٢﴾﴾ (٣)، وقوله في وصف الشركاء: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ (٤)، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ نَادَعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾ (٥)، وجاء الاحتجاج صراحة على بطلان عبادة الآلهة بدلالة حلول العذاب بعابديها جزاء عبادتها، كما في قوله - تعالى - : ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا آيَاتِنَا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧﴾﴾ فَلَولا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا لِلهِ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٦).

وقوله - تعالى - : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٦﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ غَيْرَ تَنْبِيءٍ ﴿١٧﴾﴾ (٧).

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤٢١/٤.

(٢) سورة الروم: ٤٠.

(٣) سورة الملك: ٢٠.

(٤) سورة الأعراف: ١٩٢.

(٥) سورة الأعراف: ١٩٧.

(٦) سورة الأحقاف: ٢٧، ٢٨.

(٧) سورة هود: ١٠٠، ١٠١.

وهذان السياقان يدلان على بطلان الشرك في العبادة من وجهين:

الأول - أنها لو كانت حقًا ما عذبوا.

الثاني - أن معبوداتهم لم تدفع عنهم العذاب، فدل على أنها ليست أهلاً لأن تعبد.

المطلب الثاني

إبطال عبادة الشركاء بدلالة اتصافهم بالنقص

سبقت الإشارة إلى أن من لم يتصف بالكمال المطلق لزمه الاتصاف بالنقص، وأن هذا منافٍ للتعبد فطرة وعقلاً^(١)، والقرآن مملوء بالاستدلال العقلي على بطلان الشرك من هذا الباب. وهو مع دلالة على بطلان عبادة غير الله - تعالى -، يدل دلالة صريحة على ثبوت صفات الجلال والكمال للإله الحق، كما سبق بيانه^(٢). ومن الإشارات الإجمالية إلى هذا الدليل قوله - تعالى -: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلَّ سَمُّوهُمْ﴾^(٣).

ووجه الشاهد في هذه الآية: أن تسمية هذه الآلهة المجعولة شركاء لله - تعالى - المأمور به في الآية يكشف حقيقة حالها؛ فإنها إن سُمِّيت بأسماء الإله الحق، كالحق القيوم الخالق الباريء، ظهر زيفها، من عدم موافقة هذه الأسماء لحقيقتها، وإن سميت بأسمائها الحقيقية، كالحجارة والأصنام وغيرها من سائر المعبودات من دون الله، ظهر بطلان عبادتها بما دلت عليه أسماؤها الحقيقية من نقص.

يقول ابن تيمية معلقاً على هذه الآية:

(قد حام حول معنى هذه الآية كثير من المفسرين، فما شفو عليلاً، ولا أرووا غليلاً، وإن كان ماقلوه صحيحاً، فتأمل ما قبل الآية

(١) انظر ص: ٣٧١.

(٢) انظر ص: ٣٧٢.

(٣) سورة الرعد: ٣٣.

وما بعدها يُطلعك على حقيقة المعنى، فإنه - سبحانه - يقول: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾^(١)، وهذا استفهام تقرير، يتضمن إقامة الحجة عليهم، ونفي كل معبود مع الله، الذي هو قائم على كل نفس بما كسبت، بعلمه وقدرته، وجزائه في الدنيا والآخرة، فهو رقيب عليها، حافظ لأعمالها، مجاز لها بما كسبت، فإذا جعلتم أولئك شركاء فسموهم إذاً بالأسماء التي يسمي بها القائم على كل نفس بما كسبت؛ فإنه - سبحانه - يسمي بالحي القيوم، المحي المميت، السميع البصير، الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، ووجود كل شيء به، فهل تستحق آلهمتكم اسماً من تلك الأسماء؟

فإذا كانت آلهة حقاً فسموها باسم من هذه الأسماء، وذلك بهتٌ بين، فإذا انتفى عنها ذلك عُلِمَ بطلانها كما عُلِمَ بطلان مسماها.

وأما إن سموها بأسمائها الصادقة عليها، كالحجارة وغيرها من الجمادات، أو البقر وغيرها من الحيوانات، أو الشياطين، أو الكواكب المسخرات تحت أوامر الرب، وغيرها من الأسماء التي هي أسماء مخلوقات محتاجة، مدبرة مقهورة، فهذه أسماؤها الحق، وهي تبطل إلهيتها؛ لأن الأسماء التي من لوازم الإلهية مستحيلة عليها، فظهر أن تسميتها آلهة من أكبر الأدلة على بطلان إلهيتها، وامتناع كونها شركاء لله - عز وجل -^(٢).

ومن صفات النقص التي نبه القرآن إلى دلالتها على بطلان عبادة الموصوف بها مايلي:

أولاً - عدم السمع والبصر:

وهذا مما استدل به إبراهيم - عليه السلام - على أبيه في بطلان

(١) سورة الرعد: ٣٣.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٥/١٩٦، ١٩٧ [بتصرف].

عبادته الأصنام، حيث قال فيما أخبر الله - تعالى - عنه: ﴿يَتَأْتَى لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾^(١)، وعلى قومه حيث سألهم عن آلهتهم: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ﴾^(٢)، وجعلها الله - تعالى - علامة على بطلان دعاء غيره، حيث يقول: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾^(٣). ويقول - عز وجل -: ﴿الْهَمَّ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا آمَهُمُ آتِدْرَبُطُشُونَ بِهَا آمَهُمُ آعَيْنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا آمَهُمُ آاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾^(٤).^(٥)

ويقول - عز وجل -: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرْتَهُمُ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾^(٦).^(٧)

ووجه الاستدلال في هذه الآيات ظاهر من بيان أن هذه الآلهة المدعوة من دون الله - تعالى - هي أقل حالاً ممن يدعوها ويستغيث بها، وهم أقدر منها على القيام ببعض مصالحهم، حيث فقدت الجوارح التي هي أدوات الكسب، التي يُنَاطُ بها النفع والضرر، فكيف يصح أن تُرْفَع إلى مقام الألوهية؟ مع أن الحس والمشاهدة يشهدان بكونها دون الصفات البشرية؟^(٨).

-
- (١) سورة مريم: ٤٢.
(٢) سورة الشعراء: ٧٢.
(٣) سورة فاطر: ١٤.
(٤) سورة الأعراف: ١٩٥.
(٥) انظر تعليق ابن القيم على هذه الآية في إعلام الموقعين: ١/١٩٩، ٢٠٠.
(٦) سورة الأعراف: ١٩٨.
(٧) في المراد بهذه الآية قولان كلاهما يحتمله السياق: الأول - أنهم الأصنام، ورؤي عن السدي. والثاني - أنهم المشركون، وروي عن مجاهد، والاستشهاد بالآية هنا على الأول، انظر جامع البيان: ١٥٢/٩، ١٥٣.
(٨) انظر تفسير المنار لمحمد رشيد رضا: ٥٢٩/٩.

ثانيا - عدم القدرة على الكلام.

وقد نبّه الخليل إبراهيم - عليه السلام - إلى دلالة هذا الوصف على نقص الأصنام، مما يدل على بطلان إلهيتها، حيث قال لها فيما أخبر الله - تعالى - عنه: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴾^(١)، ونبه قومه إلى ذلك حيث قال لهم فيما أخبر الله: ﴿ فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾^(٢). وقال - تعالى - عن قوم موسى وعبادتهم العجل: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾^(٣).

فاستدل بعدم مخاطبته لهم على بطلان عبادته وألوهيته. ومثله قوله - تعالى -: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلِمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾^(٤).

وفي هذا المعنى ما ضرب الله - تعالى - من المثل لنفسه ولما يُعبد من دونه، حيث قال - تعالى -: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾^(٥).

قال ابن القيم: (فالصنم الذي يُعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم، لا يعقل ولا ينطق، بل هو أبكم القلب واللسان، قد عدم النطق القلبي واللسان^(٦))، ومع هذا فهو عاجز لا يقدر على شيء البتة، وعلى هذا فأينما أرسلته لا يأتيك بخير، ولا يقضي لك حاجة، والله - سبحانه - حي

(١) سورة الصافات: ٩٢، وقد قال إبراهيم - عليه السلام - ذلك تهكما واستهزاءً بالأصنام، واحتقارا لشأنها، ولا يمنع هذا من تضمن الآية للدلالة المذكورة.

(٢) سورة الأنبياء: ٦٣.

(٣) سورة طه: ٨٩.

(٤) سورة الأعراف: ١٤٨.

(٥) سورة النحل: ٧٦.

(٦) كذا، ولعلها: اللساني.

قادر متكلم، يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد^(١).

ثالثا - حاجتها للطعام والشراب، وأنها مخلوقة مفتقرة فانية.

وسبب كون الطعام والشراب صفة نقص: هو منافاتها الغنى المطلق، والحياة الكاملة، واستلزامها كثيرا من الآفات، كقضاء الحاجة، والجوع والعطش، والموت، وغير ذلك من اللوازم التي لاتليق بمقام الألوهية، لذلك نزه الله - تعالى - نفسه عنها في قوله: (وهو يُطعمُ ولا يُطعمُ)، على قراءة من قرأ الفعل الثاني بفتح الياء والعين، وهي قراءة سعيد بن جبير ومجاهد والأعمش، وهي موافقة لأحد الأقوال في تفسير الصمد، وهو أنه الذي لاجوف له، ولا يأكل الطعام^(٢). وبهذه الحجة أبطل الله - تعالى - ألوهية عيسى ابن مريم التي ادعاها النصارى، حيث يقول - تبارك وتعالى -: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظَرَ كَيْفَ بُنِيَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظَرْتُمْ أَنْ تُؤْفَكُوا﴾^(٣).

فهذه الآية الكريمة أبطلت ألوهية المسيح وأمه من وجهين كما يقول ابن القيم:

(الأول - حاجتهما إلى الطعام والشراب، الدالة على ضعف بنيتهما عن القيام بنفسيهما، ومن هذا حاله لا يكون إلها، إذ من لوازم الإله أن يكون غنيا.

الثاني - استلزام ذلك حصول الفضلات القذرة، التي يتنزه عنها

(١) إعلام الموقعين: ٢١٢/١.

(٢) انظر أضواء البيان: ١٦٦/٢، ١٦٧، وانظر هذه القراءة الشاذة في إتحاف فضلاء البشر للبننا: ٦/٢، حيث ذكرها عن الحسن والمطوعي.

(٣) سورة المائدة: ٧٥.

مقام الألوهية، ولهذا - والله أعلم - كُتبي عنها في الآية بلازمها الذي هو أكل الطعام.

فكيف يليق بالرب - سبحانه - أن يتخذ صاحبة وولداً من هذا الجنس؟ ولو كان يليق به ذلك أو يمكن لكان الأولى به أن يكون من جنس لا يأكل ولا يشرب، ولا يكون منه الفضلات المستقدرة التي يُستحيا منها، ويُرغب عن ذكرها^(١).

وأما الموت، فهو من لوازم الطعام والشراب كما سبق، ولانخفي منافاته للاتصاف بكمال الحياة اللاتقة بمقام الألوهية، فنزه الله - تعالى - نفسه من ذلك بقوله: ﴿وَوَكَّلَ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبَّحَ بِحَمْدِهِ﴾^(٢)، كما أشار إلى دلالاته على بطلان ألوهية المتصف به كما في قوله - تعالى - : ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢١﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرِ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾^(٣).

ومعنى كونها أمواتا في هذه الآية: أنها جمادات لاحياة فيها، فكل ماكان خاليا من الحياة صح وصفه بالموت، ولو لم يقبل الحياة أصلاً، وكان أنقص مما هو موصوف بالحياة^(٤).

ولاشك أن في هذا الدليل أبلغ الرد على عباد القبور، والمستغيثين بالموتى، وعلى من يعتقد فيهم القدرة على النفع والضرر، أو التصرف والتدبير لشيء من أحوال الخلق.

وقد استدل نبينا ﷺ بهذا الوصف على بطلان ألوهية المسيح - عليه السلام - كما هي دعوى النصارى.

(١) الصواعق المرسله: ٤٨٢/٢، ٤٨٣، [بتصرف].
(٢) سورة الفرقان: ٥٨.
(٣) سورة النحل: ٢٠، ٢١.
(٤) انظر التدمرية لابن تيمية: ص ١٦٠.

فقد روى ابن جرير الطبري بإسناده عن الربيع^(١) قال: إن النصارى أتوا رسول الله ﷺ فخاصموه في عيسى ابن مريم، وقالوا له: من أبوه؟ وقالوا على الله الكذب والبهتان، لا إله إلا هو، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، فقال لهم النبي ﷺ: «الستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟».

قالوا: نعم.

قال: «الستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت، وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟».

قالوا بلى.. إلى آخر الحديث^(٢).

وقد أكد الله - تعالى - بطلان ألوهية عيسى - عليه السلام - بالتنبيه إلى بشريته، وأنه كغيره من الناس، يعتره ما يعترهم من الأحوال والأطوار، حتى قال ابن جرير في قوله - تعالى - في وصف عيسى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾^(٣): إن الله - تعالى - إنما أخبر بأنه يتكلم كهلاً، مع أن الغالب أن الناس يتكلمون كذلك، تأكيداً على مماثلته لغيره من الناس، وأنه كان يعاني ما يعانيه غيره من التقلب في الأحداث طفلاً ثم كهلاً، ومرور الأزمنة والأيام عليه من صغر إلى كبير، ومن حال إلى حال، مما لا يجوز على الإله الحق^(٤).

(١) هو ابن أنس البكري، روى عن أنس بن مالك وأبي العالية والحسن البصري، توفي سنة ١٣٩ أو ١٤٠هـ. انظر تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني: ٢٠٧/٣.

(٢) جامع البيان: ١٠٨/٣، ١٠٩، والحديث مرسل، وقد ذكره ابن تيمية، في الجواب الصحيح: ١٩٦/١.

(٣) سورة آل عمران: ٤٦.

(٤) انظر جامع البيان: ٢٧٢/٣.

رابعًا - أقولها واحتجابها:

وبهذا احتج إبراهيم - عليه السلام - على بطلان عبادة قومه للكواكب، كما قص الله - تعالى - عنه ذلك في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَإِنَّ أَوْلَىٰ لِآبَائِهِ عِبَادَةً لِّمَّا شَاءُوا إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرِحْتَ بِأَصْنَامِكَ إِنَّا بِلَهِّنَا حَاكِمُونَ وَمَا لَهُنَا حِسَابٌ وَوَجَدَ إِبْرَاهِيمَ لِقَوْمِهِ إِكْرَامًا يُكَفِّرُونَ ۚ﴾ (١) فَلَمَّا أَفْلَقَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفَلِيكَ ﴿٧٦﴾ ... الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ۙ (٢) ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝ (٣)﴾ (٣)، ويتبين وجه دلالة الأفل على بطلان عبادة الأفل بأمور، منها:

١ - أن الأفل مغيب واحتجاب عن الخلق، والشأن في الإله الحق أن يكون دائم الشهود والمرافقة لخلقه، ليدبر شؤونهم، ويقوم على مصالحهم، فدل مغيب الكوكب والشمس والقمر على بطلان عبادتها؛ لأنها لا تغني شيئًا عن عابديها حال مغيبها (٤).

(١) هل كان إبراهيم في قوله عن الكوكب: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ ناظرًا يبحث عن الحقيقة وينشدها، أم أنه كان ناظرًا لقومه يريد إقامة الحجة عليهم، مع اطمئنان قلبه ومعرفة لربه؟ قولان للعلماء، وأكثر المحققين على الثاني، وممن رجح الأول ابن جرير في تفسيره: ٢٥٠/٧ وابن الوزير اليماني في البرهان القاطع: ص ١٠٦ ومابعدهما، وممن رجح الثاني الحافظ ابن كثير في تفسيره: ١٦٩/٢، ١٧٠، والشنقيطي في أضواء البيان: ١٨٠/٢، ونص على أن القرآن يبطل القول الأول، وإن كان لفظ الآية يحتمل القولين.

(٢) التحقيق أن قول إبراهيم: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفَلِيكَ﴾ داخل في هذه الحجة، خلافاً لمن زعم أن الحجة مختصة بقوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ [سورة الأنعام: ٨١]، انظر آداب البحث والمناظرة للشنقيطي: ٨٢/٢، ٨٣.

(٣) سورة الأنعام: ٧٤ - ٨٣.

(٤) انظر التحرير والتنوير لابن عاشور: ٣٢٠/٧، ٣٢١.

٢ - مآذكره صآحب آفسفر المنآر؁ من أن العآقل السلسم الفطرة والذوق؁ لاآختآر لنفسه حب شآء آغآب عنه؁ وآووشه فقد جمآله وكمآله؁ حتى فآ المآب الذي هو دون حب العبآدة؁ فكآف بآب العبآدة الذي هو أعلآ الحب وآكمله؟؛ فآنه لاآآوز أن آكون إآ للرب الحآضر القرب؁ السمع البصفر الرقب؁ الذي لاآغآب ولاآأفل؁ ولاآنسآ ولاآذهل؁ الظآهر فآ كل شآء بآآآه وآآآله؁ البآطن فآ كل شآء بآآكمته ولطفه الخفآ فآه^(١).

وقد زعم كل من المتفلسفة وآهل الكلام أن الأفول فآ هذآ الآآآ معناه الحركة والآآفر؁ وأن إبرآهم آستدل على بطلآن ربوبآة الكوكب بطرقآة الأعراض والآآسآم؁ آآ آعل آلول الآوآث بهذآ الكوكب دلآآً على آوآثآ؁ على قول المتكلمآن^(٢)؁ أو أنه آعل آفولآ دلآآً على إمكانآه على قول الفلاسفة^(٣).

وقد أبطل شآخ الإسلام ابن آآمة هذآ القول من الوجوه الآآآة:
١ - لو كآن قول إبرآهم: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ معناه: هذآ رب العآلمآن؁ لكآنت الآآة عليهم لا لهم: لأنه آآآئذ لم تكن الآرة عنه آمنعة من كونه رب العآلمآن؁ وآنمآ المآنع الأفول^(٤).

(١) انظر آفسفر المنآر: ٥٥٨/٧.

(٢) انظر آفسفر الرآزآ: ٥٤/١٣؁ وانظر ردآ شآخ الإسلام على آستدلال الرآزآ بهذآ الآآآ على نفآ قآآم الآوآث بذآآ الله - آعلآ - فآ درء آعآرض العقل والنقل: ٢١٦/٢.

(٣) انظر منآهج الأدلة لابن رشد: ص٥٢؁ وانظر ردآ ابن آآمة عليه فآ درء آعآرض العقل والنقل: ٨٢/٩؁ ومآبعدهآ. وانظر آآضآ ردآ ابن آآمة على القرمطة فآ آستدلالهم بهذآ الآآآ على مذآبهم الفآسد فآ درء آعآرض العقل والنقل: ٣١٥/١ - ٣١٧.

(٤) انظر منآهج السنة: ١٩٦/٢.

٢ - أن الأفول باتفاق أهل اللغة والتفسير هو المغيب والاحتجاب، لا الحركة والانتقال. ويطلق على ذهاب ضوء القمر والكواكب بطولوع الشمس، كما يطلق على غروب هذه الأجرام^(١).

٣ - أن إبراهيم - عليه السلام - لو استدل بالحركة لكان من حين بزغت الكواكب استدل بذلك، ولم ينتظر حتى المغيب، ولكان نفس الحركة التي يشاهدها من حين تطلع إلى أن تغيب هي الأفول.

٤ - أن إبراهيم لم يكن يعني بقوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ أنه رب العالمين على أي وجه قاله، ولا اعتقد ذلك قومه ولا غيرهم، وإنما كان الذي يقول ذلك يتخذه ربًا يعبده لينال بذلك أغراضه، كما كان عباد الكواكب يفعلون ذلك، وكان قومه من هؤلاء، لم يكونوا جاحدين للصانع، بل مشركين به^(٢).

وبهذا يظهر أن إبراهيم - عليه السلام - إنما كان بصدد إبطال عبادة قومه لغير الله - تعالى -، وأنه إنما احتج بالأفول على هذا المطلب لا غير، وأن الأفول والمغيب والاحتجاب صفات نقص تدل على بطلان عبادة من يتصف بها.

وإذا تقرر هذا، فقد يرد سؤال عن كيفية الجمع بينه وبين قول

(١) انظر شرح حديث النزول لابن تيمية: ص ٤٢٣.

(٢) انظر دره تعارض العقل والنقل: ٣٥٦/٨، وانظر هذه الوجوه في دره تعارض العقل والنقل: ١٠٩/١ - ١١٢، ٣١١ - ٣١٧، و ٣٥٥/٨، ٣٥٦، ومنهاج السنة: ١٩٤/٢ - ١٩٦، ومجموع الفتاوى: ٢٥٣/٦ - ٢٥٦، والرد على المنطقيين: ٣٠٤ - ٣٠٧، وشرح حديث النزول: ٤٢٣ - ٤٢٦. وانظر كلام الدارمي في رده على بشر المريسي في عقائد السلف: ٤١٢، ٤١٣. وموافقة ابن الوزير لابن تيمية في هذا النقد في كتابه البرهان القاطع: ص ١٠٣، ١٠٤، مع مخالفته له في أن إبراهيم كان ناظرًا لامناظرًا كما يرجح ابن تيمية وغيره.

النبي ﷺ عن ربه - تبارك وتعالى - فيما رواه مسلم بسنده عن أبي موسى رضي الله عنه - : «حجابه النور» وفي رواية «النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»^(١)، وكذلك ماجاء عن بعض السلف في تفسير قوله - تعالى - : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾^(٢) أنه الله - تعالى -^(٣).

والجواب: أنه لا إشكال هنا البتة؛ فإن الله - تعالى - رقيب شهيد على خلقه لم يغب عنهم طرفة عين، كما قال - تعالى - : ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٤)، وكما قال النبي ﷺ فيما رواه مسلم بسنده عن أبي هريرة: «وأنت الباطن فليس دونك شيء»^(٥)، وليس احتجابه عن خلقه كاحتجاب الكواكب وأقولها ومغيبها، وإنما احتجب - سبحانه وتعالى - بحجاب النور، للحكمة التي بينها الحديث، وهي أن يحترق خلقه بسبحات^(٦) وجهه - تعالى - وتقدس -، فاحتجابه - تبارك وتعالى - إنما كان لكمال عظمته وهيبته وجلال أنواره، ولنقص الخلائق وقصورهم عن إضاءة تلك الأنوار القدسية، روى الإمام مسلم بسنده عن أبي ذر رضي الله عنه - أنه سأل النبي ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أتى

(١) الصحيح، كتاب الإيمان، باب في قوله عليه السلام: إن الله لا ينام، وفي قوله: حجابه النور...، (١٤١/١)؛ حديث رقم: (١٧٩).

(٢) سورة البقرة: ٣.

(٣) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٥١/١٤.

(٤) سورة البروج: ٩.

(٥) الصحيح، كتاب الذكر، باب مايقول عند النوم، (١٦٥٥/٤)، حديث رقم: (٢٧١٣).

(٦) قال النووي: (قال صاحب العين والهروي وجميع الشارحين للحديث من اللغويين والمحدثين: معنى سبحات وجهه: نوره وجلاله وبهاؤه)، شرح صحيح مسلم: ١٣/٣، ١٤.

أراه؟»^(١)، فعدم رؤية الباري - تعالى - رؤية حسية في الدنيا إنما انتفت لقيام مانع في الأبصار، لا لمغيب العزيز الجبار، وسوف يزول هذا المانع بقدرته الله - تعالى - في الآخرة، في حق المؤمنين الموعودين برؤية ربهم في الجنة.

أما الإخبار عن الله - تعالى - بالغياب، المأخوذ من تفسير بعض السلف لقوله - تعالى -: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾، فقد يُوهم تعارضه مع قوله - تعالى -: ﴿ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾^(٢)، ومع ما تقرر سابقا من أن الغياب والأفول والاحتجاب صفة نقص جعلها الخليل دليلاً على بطلان عبادة الكوكب.

والواقع ألا تعارض إطلاقاً، وذلك أن اسم الغيب والغائب من الأمور الإضافية، يراد به ما غاب عنا فلم ندركه، ويراد به ما غاب عنا فلم يدركنا، والله - سبحانه - ليس غائباً، ولكن لما لم يره العباد كان غيباً، ولهذا يدخل في الغيب الذي يؤمن به وليس هو بغائب؛ فإن الغائب اسم فاعل، وأما الغيب فهو مصدر، فتسميته باسم المصدر دون الفاعل فيه تنبيه على النسبة إلى الغير، أي ليس هو بنفسه غائباً، إنما غاب عن غيره أو غاب غيره عنه، فالمعنى في كونه غيباً هو انتفاء شهودنا له^(٣).

خامساً - عجزها عن الدفاع عن نفسها والكيدها بأعدائها.

وهذا معنى قوله - تعالى - في وصف الشركاء: ﴿ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصُدُّونَ ﴾^(٤) وقوله - تعالى -: ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ

(١) الصحيح، كتاب الإيمان، باب في قوله عليه السلام: نور أتى أراه...، (١٤١/١)، حديث رقم: (١٧٨).

(٢) سورة الأعراف: ٧.

(٣) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٥٢/١٤، ٥٣.

(٤) سورة الأعراف: ١٩٢، ١٩٧.

مَتَّأ يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾^(١)، وبهذا الوصف فيها أراد الخليل - عليه السلام - أن يدل قومه على بطلان عبادتها حين حطمها، كما أخبر الله - تعالى - عنه بقوله: ﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ صَرَبًا بِالْيمِينِ﴾^(٢) وقوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَيْرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾^(٣) إلى قوله - تعالى -: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْتَلَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾^(٤).

وقد روي في السيرة أن عمرو بن الجموح^(٤) كان قد اتخذ في داره صنمًا من خشب يقال له: مناة، فكان ابنه معاذ يسرى بالليل هو ومعاذ بن جبل على ذلك الصنم فيطرحونه منكسًا على رأسه في حفرة يتخذها الناس للعدرة، فإذا أصبح عمرو قال: ويلكم، من عدا على آلهتنا هذه الليلة؟ فيأخذه ويغسله ويطيبه، ثم يعود المعاذان إلى فعلهما فيه، فلما أكثرا عليه، جاء عمرو بسيفه فعلقه عليه وقال له: إني والله ما أعلم من يصنع بك ماترى؛ فإن كان فيك خيرٌ فامتنع، فهذا السيف معك، فغدا عليه الشابان، فأخذوا السيف من عنقه، ثم قرنا به كلبا ميتا، وألقياه في بئر، فلما رآه عمرو على تلك الحال تاب إلى عقله، وأسلم وحسن إسلامه، وأنشأ يقول في صنمه:

والله لو كنت إلها لم تكن أنت وكلب وسط بئر في قرن
أفٌ لملقاك إلها مستدن الآن فتشناك عن سوء الغين^(٥)

وأما عجز الآلهة عن الكيد بأعدائها، فقد اتخذها الأنبياء برهانا

(١) سورة الأنبياء: ٤٣.

(٢) سورة الصافات: ٩٣.

(٣) سورة الأنبياء: ٥٨ - ٦٣.

(٤) هو الصحابي الجليل عمرو بن الجموح ابن زيد بن حرام بن كعب بن غنم بن سلمة الأنصاري السلمي، من سادات الأنصار، استشهد يوم أحد، وبشره النبي - ﷺ - بالجنة. انظر الإصابة: ٥٢٢/٢، ٥٢٣.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام: ٤٥٢/١، ٤٥٣ باختصار.

على بظلمتها، واحتجوا به على المشركين، حيث تحذوهم غاية التحدي أن يلحقوا بهم هم وشركاؤهم أدنى أذى، وذلك على الرغم مما صرح به الرسل من احتقار وتسفيه لشأن هذه الآلهة ومن يعبدها، ووصفها بما هي أهله من العجز والنقص، كما ذكر الله - تعالى - ذلك عن بعض أنبيائه:

فقال عن نوح - عليه السلام -: ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَفْقَهُوا إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِتَايِبَةٍ آلِهَةٍ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ (١)

وقال عن هود - عليه السلام - حين قال له قومه: ﴿ إِن نَقُولُ إِلَّا أَعْرَبَكَ بَعْضَ آلِهَتِنَا يَسُوءُ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ بِاللَّهِ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (٢) من دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ (٣) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِن رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٤)

وقال في حق إبراهيم - عليه السلام -: ﴿ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٥) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٦) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (٧) ، وأمر نبيه محمداً - عليه أفضل الصلاة والسلام - بقوله: ﴿ قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ (٨) وَإِنِّي وَلِيُّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ (٩)

سادساً - أنها ترد النار.

كما دل عليه قوله - تعالى - في كفار قريش: ﴿ إِنَّا نَكْتُمُ وَمَا

- (١) سورة يونس: ٧١.
 (٢) سورة هود: ٥٤ - ٥٦.
 (٣) سورة الأنعام: ٨٠ - ٨٢.
 (٤) سورة الأعراف: ١٩٥، ١٩٦.

تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَتْ هَتُوكَ
 ءِالِهَةً مَا وَرَدُّوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ (١).

وهذا الوصف في الحقيقة ليس دليلاً عقلياً مستقلاً قائماً بذاته على بطلان إلهية هذه الأصنام، أو غيرها من المعبودات التي ترد النار مع عابديها؛ لأن دلالة إذا تكون متوقفة على ورود هذه الآلهة المزعومة النار، وهي لما ترد، والحاصل أن الخطاب بهذه الآية وجه إلى الكفار في الدنيا قبل حصول الورد، فلذلك لا يقال إنه دليل تام مستقل على بطلان الآلهة إلا بعد ورودها النار مع عابديها، وشهودهم ذلك.

ويقال عن دلالة هذه الآية - كما عبر سيد قطب -: إنه (برهان وجداني، ينتزع من هذا المشهد المعروف عليهم في الدنيا، وكأنما هو واقع في الآخرة) (٢).

فالآية إذا أُريد بها الزجر والتهديد في الدنيا، بعرض مشهد القيامة، والتبكيك والتوبيخ في الآخرة بعد حصول الورد.

ومما يدل على ذلك سياق الآيات قبلها وبعدها، فإنه ذكر قبلها قيام الساعة وما يحصل فيها من بهوت الكفار، وذعرهم، ودعوتهم بالويل والثبور، وتحسرهم على تفريطهم، ثم وجه الخطاب لهم ببيان مآلهم ومصيرهم، هم وأهلهم، ثم جاءت هذه الآية موبخة لهم ومبكتة، زيادة في التنكيل بهم، ثم جاء وصف حالهم في النار.

فقال - تعالى - في هذه الآيات: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْوِلُنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَتْ هَتُوكَ ءِالِهَةً مَا وَرَدُّوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ

(١) سورة الأنبياء: ٩٨، ٩٩.

(٢) ٢٣٩٩/١٧.

فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ (١)

فظاهر من السياق إذن أن قوله - تعالى - : ﴿لَوْ كَانَتْ هَذِهِ آيَةً﴾
عَالِيَةً مَا وَرَدُوهَا ﴿١٠٠﴾ ، أنه من تمام ما يقال لهم يوم القيامة ، توبيخا
وتقريعا لهم على ما كان منهم من عبادتها .

وإذ تقرر هذا فلا يتوجه الخطاب لهم في الدنيا بهذه الآية إلا
على سبيل التخويف والتهديد ، لأعلى سبيل الاحتجاج والاستدلال .

اللهم إلا أن يقال : إنه لا مانع من توجه هذا الاستدلال والاحتجاج
عليهم باعتبار انضمامه إلى الدلائل والبراهين الأخرى القاطعة ، التي
دلت على بطلان عبادتها ، وعلى صدق محمد - عليه الصلاة والسلام - ،
وأنه لا يخبر إلا بحق ، وأن ما ذكره من ورودها النار واقع لا محالة ،
لما ثبت من صدقه وتأكد نبوته ، فحينئذ يكون الخطاب موجها إليهم
في الدنيا على سبيل الاحتجاج .

ومما يؤيد هذا التوجيه ، أن كفار قريش لم يجادلوا النبي ﷺ في
هذه الحجة من هذه الجهة ، وما ورد عنهم البتة أنهم قالوا له : كيف
تحتج علينا بأمر لم نسلّمه لك بعد ، ولم نؤمن لك فيه . بل إنهم ذهبوا
بجادلونه في أمر آخر غير هذه المسألة ، وهو أنه إذا كان كل من عبد من
دون الله سيدخل النار مع من عبده ، فكيف الشأن بعيسى ابن مريم وقد
عبده النصارى ؟ حتى أنزل الله - تعالى - في الرد عليهم الآية التي بعد
هذا السياق : ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (٢)

فلا شك أن انصرافهم عن الطعن في الدليل على النحو الأول إلى
التشغيب عليه على هذا النحو دال على أنهم لم يروا فيه مطعنا في
أصل دلالته ، لما اقترن به واحتف من دلائل أخرى تدل على صدق

(١) سورة الأنبياء : ٩٧ - ١٠٠ .

(٢) سورة الأنبياء : ١٠١ .

النبي ﷺ وبطلان الأصنام، أو أنهم علموا أنه ما وُجّه إليهم على سبيل الدلالة المستقلة الفورية على بطلان الآلهة، كما تقدم آنفاً.

وإذا كانت هذه الآية الكريمة ليست دليلاً تاماً مستقلاً على بطلان الآلهة، أو على الأقل موقوفة الدلالة على حصول الورد يوم القيامة، فما سبب إيرادها في هذا البحث الخاص بالأدلة العقلية؟

والجواب أنه ماكان لهذه الآية أن تُورد في هذا البحث، لولا ما ذكره الرازي في تفسيره لها من شبهة خطيرة، أظهرتها بمظهرٍ ضعيف، لا يليق بأدلة القرآن وحججه المنزلة من لدن حكيم خبير. فقد قال الرازي عند تفسيره هذه الآية مانصه:

(هل هنا سؤال: وهو أن قوله: ﴿لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ آلهَةً مَا وَرَدُوهَا﴾ - لكنهم وردوها، فهم ليسوا آلهة - حجة، وهذه الحجة إما أن يكون ذكرها لنفسه أو لغيره، فإن ذكرها لنفسه فلا فائدة فيه؛ لأنه كان عالماً بأنها ليست آلهة، وإن ذكرها لغيره فإما أن يذكرها لمن يصدق بنبوته أو لمن يكذب نبوته؛ فإن ذكرها لمن صدّق بنبوته فلا حاجة إلى هذه الحجة؛ لأن كل من يصدق نبوته لم يقل باللهية هذه الأصنام، وإن ذكرها لمن يكذب نبوته فذلك المكذب لا يسلم أن تلك الآلهة يردون النار، ويكذبونه في ذلك، فكان ذكر هذه الحجة ضائعاً كيف كان، وأيضاً فالقائلون باللهيتها لم يعتقدوا فيها كونها مدبرة للعالم، وإلا لكانوا مجانين، بل اعتقدوا فيها كونها تماثيل الكواكب أو صور الشفعاء، وذلك لا يمنع من دخولها في النار.

وأجيبَ عن ذلك بأن المفسرين قالوا: المعنى لو كان هؤلاء - يعني الأصنام - آلهةً على الحقيقة ماوردوها، أي: ما دخل عابدها النار^(١).

(١) التفسير الكبير: ٢٢/٢٢٥.

ولا يخفى ضعف الجواب الذي أورده عن هذه الشبهة^(١)، فإن قوله - تعالى -: ﴿ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ يشمل العابد والمعبود، وحتى على فرض صحة ما ذكره عن المفسرين، فإن الشبهة لا تنزل قائمة، والجواب الصحيح هو ما تقدم ذكره من أن الخطاب في الآية إنما يتجه إلى المشركين بعد ورودهم النار مع آلهتهم، وأنه قبل ذلك يكون بمثابة الوعيد والتهديد لهم، والله أعلم.

وأما الشبهة الثانية التي جاءت في كلام الرازي، وهي أن المشركين ما كانوا يعتقدون ربوبية هذه الآلهة، وإنما عبدوها للتقرب، وأن ذلك لا يمنع دخولها النار! فلا أدري ما وجه السؤال فيها أصلاً؟ فإن ورود هذه الآلهة النار على سبيل الإهانة والتبكيك لعابديها برهان على بطلان عبادتها دون شك، سواء اعتقد عابدها فيها الربوبية، أو عبدوها للتقرب والشفاعة، فالدليل مستقيم على كلا الحالين.

وما ذكره من كونهم إنما عبدوها للتقرب هو الحق الذي شهد له القرآن، ولكنه لا يتعارض مع دلالة الآية بحال، والله أعلم.

وبعد، فهذه بعض الإشارات من الكتاب والسنة إلى دلالة النقص على بطلان الألوهية، وبالجملة فكل ما تقدم في المطالب السابق من الاستدلال على بطلان عبادة آلهة مع الله بعدم اتصافها بشيء من معاني الربوبية؛ فإنه يدخل في دلالة اتصافها بالنقص على بطلان ألوهيتها، إذ فقدان الاتصاف بمعاني الربوبية ولو أزمها من أعظم النقص المنافي لكمال الألوهية.

(١) هذا من أوضح الأمثلة لما قيل من أن الرازي يورد الشبهة نقداً ويردها نسيئة.

المطلب الثالث

إبطال احتجاج المشركين بالشفاعة والزلفى

بالتأمل في الأدلة التي جاءت في القرآن الكريم لإبطال عبادة غير الله - تعالى - نعلم أن الحجة التي يمكن أن يدلي بها المشركون في العبادة لاتعدو أحد أمرين:

الأول - أن معبودهم قد شارك الله - تعالى - في بعض صفات الربوبية كالنفع والضرر.

الثاني - أن معبودهم يقربهم إلى الله - تعالى -، ويشفع لهم

عنده.

وغالب ما جاء في القرآن من إبطال الشرك في العبادة متجه إلى الأمر الأول، لا لأن الغالب على المشركين اعتقاد الربوبية في الآلهة، فإن القرآن قد صرح بأنهم كانوا مقرين بتوحيد الربوبية على وجه الإجمال، فلم يدعوا وجود خالقين للعالم، أو أن الله - تعالى - شريكا في تدبير الأمر، بل الصواب أن هذا لم يقل به أحد من عقلاء بني آدم على الإطلاق، حتى فرعون في قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾^(١) لم يكن يدعي أنه خالق العالم ومدبره، وإنما كان ذلك بمعنى أنه يجب على قومه طاعته والانقياد له، وعدم الاشتغال بطاعة غيره^(٢)، لكن قد يحصل منهم اعتقاد بعض خواص الخالق ثابتة للمخلوق على سبيل التبعية لا الاستقلال، كقول مشركي العرب: لبيك لاشريك لك، إلا شريكاً هو

(١) سورة النازعات: ٢٤.

(٢) انظر تفسير الرازي: ٦٤/٢٢.

لك، تملكه وما ملك^(١)، وكاعتقاد النفع والضرر، بل يمكن القول إنه لا يكاد يخلو عابد لغير الله - تعالى - من اعتقاد بعض معاني الربوبية فيه^(٢)، ولو النفع والضرر على أقل تقدير، حتى ولو عبده على سبيل التقرب والتزلف، فإن اعتقاده أنه يملك إجابته، ويجلب له منفعة، أو يدفع عنه مضرة، على أي وجه كان ذلك، شرك في الربوبية دون شك، وإن لم يعتقد مساواته لرب العالمين في الخلق والملك والتدبير، فكان غالب ما في القرآن من البراهين على بطلان الشرك في الألوهية منصباً على الاستدلال بعدم اتصاف الشركاء بالربوبية؛ لأن انفراد الله - تعالى - بها وبالكمال المطلق دون غيره أعظم الأدلة وأوضحها وأظهرها دلالة على وجوب إفراده بالعبادة دون غيره، فكان للمبالغة في نفي ذلك عن الآلهة المتخذة من دون الله - تعالى - مع كون عابديها غالباً لا يعتقدونه فيها - دلالة زائدة على مجرد إثبات عدم استحقاقها للعبادة، وهي أنها لا تصلح عبادتها أصلاً ولا تصح، وأن ذلك قبيح ممتنع في العقول السليمة والفطر المستقيمة، ولهذا امتنع كل الامتناع أن يشرع الله - تعالى - أو يأذن في عبادة غيره ولو على سبيل التقرب والتزلف.

وهذا هو الأمر الثاني الذي يحتج به المشركون على عبادة غير الله - تعالى -، وهو الذي عليه أكثر المشركين في العبادة، كما ذكر الله ذلك عنهم في قوله - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾^(٣)، وقوله - تعالى -: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٤).

(١) انظر تفسير الطبري: ٧٩/١٣.

(٢) انظر حجة الله البالغة للدهلوي: ١٨٤/١.

(٣) سورة الزمر: ٣.

(٤) سورة يونس: ١٨.

وماتقدم في هذا الفصل كان في سبيل إبطال عبادة غير الله - تعالى - بالحجة الأولى، أما الحجة الثانية فتحتاج إلى مزيد بيان لإبطالها؛ فإن صاحبها ينكر أن يكون معبوده متصفاً بشيء من الربوبية، لكنه يزعم أن عبادة غيره على سبيل التقرب والوساطة سائغة، وأنها ربما تكون أولى من عبادة الله - تعالى - مباشرة، جرياً على عادة الناس مع ملوك الأرض في اتخاذ الوسائط والشفاعات، التي هي أعظم أسباب حصول المطلوب منهم، أو لأن العابد يكون أقل شأنًا وأحق منزلة من أن يتوجه مباشرة بالعبادة إلى الله - تعالى -، فلا بد له إذا من التماس الوسيط الشافع من ذوي الحظوة والمنزلة عند الله - تعالى - من الأنبياء والأولياء وغيرهم، أو غير ذلك مما توحيه الشياطين إلى أوليائهم، مما يتوهمونه مسوغاً لهم في التوجه إلى غير الله - تعالى - بالعبادة^(١).

وإبطال هذه الحجة عقلاً يكون بيان فساد الشرك من أصله، وقبحه في الفطر والعقول، ولو كان على سبيل التقرب والتزلف، كما دل على ذلك قوله - تعالى -: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢).
يقول ابن القيم: (هذا مثل ضربه الله لمن عبده وحده فسلم له، ولمن عبد من دونه آلهة، فهم شركاء فيه متشاكسون عسرون، فهل يستوي في العقول هذا وهذا؟

وقد أكثر الله - تعالى - من هذه الأمثال، ونوعها مستدلاً بها على حسن شكره وعبادته، وقبح عبادة غيره، ولم يحتج عليهم بنفس الأمر،

(١) انظر حجة الله البالغة للدهلوي: ١٧٧/١، وانظر الرد على شبهة المشركين في أن الله - تعالى - أعظم من أن يُتقرب إليه مباشرة، وأن في ذلك غضاً من مقامه الرفيع في فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣٣/٦.

(٢) سورة الزمر: ٢٩.

بل بما ركبته في عقولهم من الإقرار بذلك، وهذا كثير في القرآن، فمن تبعه وجده^(١).

ومما دل على ذلك قوله - تعالى -: ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدِ رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾^(٢)

فإن هذا مثل ضربه الله - تعالى - للمشركين به، ينكر فيه عليهم مساواة عبيده به في العبادة، في حين أنهم لا يرضون أن يكونوا هم وعبيدهم سواء فيما رزقهم الله - تعالى - من رزق.

روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس أنه قال في معنى الآية: (يقول: لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني؟) وفي رواية عنه أنه قال في معناها: (فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم؟)^(٣).

ومن أدلة ذلك قوله - تعالى -: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾^(٤)، على قول من جعل التمانع في الآية تمانعاً في الألوهية، والفساد فيها بمعنى الفساد الناشئ عن عبادة غير الله - تعالى -^(٥).

يقول ابن القيم معلقاً على هذه الآية:

(أي لو كان في السموات والأرض آلهة تُعبد غير الله لفسدتا وبطلتا، ولم يقل أرباب، بل قال آلهة، والإله: المعبود المألوه، وهذا يدل على أنه من الممتنع المستحيل عقلاً أن يشرع الله عبادة غيره أبداً،

(١) مفتاح دار السعادة: ٩/٢.

(٢) سورة النحل: ٧١.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١٤٢/١٤.

(٤) سورة الأنبياء: ٢٢.

(٥) راجع الفصل المتعلق بأدلة توحيد الربوبية ص ٢٨٠، ٢٨١.

وأنه لو كان معه معبود سواه لفسدت السموات والأرض، ففُتِح عبادة غيره قد استقرت في الفطر والعقول، وإن لم يرد النهي عنه في الشرع، بل العقل يدل على أنه أقبح القبيح على الإطلاق، وأنه من المحال أن يشرعه الله قط، فصالح العالم في أن يكون الله وحده هو المعبود، وفساده وهلاكه في أن يُعبد معه غيره، ومحال أن يشرع لعباده ما فيه فساد العالم وهلاكه، بل هو المنزه عن ذلك^(١).

ولما كانت عبادة غير الله - تعالى - بهذه المثابة من القبح ومخالفة العقل والفطرة، جاء في القرآن التأكيد على أن المشركين ليس لهم على شركهم هذا أي دليل أصلاً، وأنهم إنما يعتمدون في ذلك على أوهام لاحقيقة لها، كما قال - تعالى -: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾^(٢). المعنى: أي حجة يتبعها هؤلاء في شركهم؟ الحقيقة أنهم إنما يتبعون الظن، والظن لامعول عليه، كما قال - تعالى -: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾^(٣).

(١) مفتاح دار السعادة: ١١/٢، وانظر تجريد التوحيد المفيد للمقريزي: ٥٢.
(٢) يحتمل في (ما) أن تكون استفهامية، ويحتمل أن تكون نافية، والاستشهاد بالآية هنا على الاحتمال الأول، انظر روح المعاني للآلوسي: ١٤٥/٦.
(٣) سورة يونس: ٦٦.
(٤) سورة يونس: ٣٦.